شخصيّات أندلسيّة

هشام الرضا

الأمير العادل والفقيه الأديب

دكتور احمد ابراهيم الشعراوى

دار النهضة العربيّة
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة ١٩٧٣

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

شخصيات أندلسية

هشام الرضا

الأمير العادل والفقيه الأديب

دكتور احمد ابراهيم الشعراوي

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

المطبعة العالمية ١٦ ، ١٧ بشارع ضريح سعد بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى أمي ...

صفحة فضل وعرفان

ولفتة حب وتقدير ؟

المؤلف

مقدمة

لاشك أن دارس التاريخ يتوقف غالباً بين الحين والحين ليرقب فى خضم الأحداث وعلى الآفاق نجماً أو أنجماً تتألق وتزدهر وتسطع ، فلا يملك إلا الاهتمام بها والانجذاب إلى ضوئها والاقتراب أكثر وأكثر من فلكها ، ثم يتوقف ليرقب وقد بهرته الصورة . وغالباً ما يبدى الدارس عجبه حالاً يرتد إلى نفسه ويترك انبهاره — ولو إلى حين — ليتابع دراساته لما أمامه من أحداث وموضوعات يسعى إلى اجتلاء خفاياها . وغالباً أيضاً ما يكون الضوء والجاذبية من القوة بحيث يفرضا على الدارس أن يتابعهما أولا قبل أن يفرغ لما يدرس . وهكذا الحال مع بعض من الأنجم التى تزخر بها آفاق العصور التاريخية المختلفة .

وحينما كنت أحضر لنيل درجة الدكتوراه فى تاريخ وحضارة الأندلس فى جامعة مدريد بأسبانيا استرعى نظرى ضمن الأنجم العديدة فى تاريخ الفترة المزدهرة نجماً طالما طالعنى بعض من شعاع ضوئه خلال ثنايا العديد من المؤلفات التى كنت دائب الاطلاع عليها فى شغف ونهم . وكنت كما قدمت أتركه مؤقتاً لأتابع

موضوع الرسالة التي كنت أعدها ، ولكن ماحيلتي حينما يتابعني ضوؤه من حين إلى حين ؟ ووجدتني في النهاية أتبعه صاغراً فاقرأ بتمعن كل كلمة تقال حول الأمير الأموي « هشام الرضا » إبن عبد الرحمن الداخل .

وقد لاحظت إهتمام المؤرخين والكتاب الكبير بشخصية والده عبد الرحمن المعروف بصقر قريش وإفاضتهم الحديث عنه وأما هشام الرضا فلم يوفه أحدهم حقه ، بل لم يهتم به أحد على وجه الإطلاق . فهذا الأمير قد حكم لبضع سنين تعد على أصابع اليدين . كانت مدة حكمه حوالي ثمانية أعوام لا أكثر . وماثمانية أعوام في عمر التاريخ ؟ ولكن على الرغم من هذه الفترة القصيرة جداً فإن أحداً لم يتنبه إلى خطرها على تاريخ الحضارة الإسلامية الأندلسية بصفة خاصة ، فالأمير هشام أولى الناحية الثقافية والحضارية عامة إهتماماً شديداً فأرسى بذلك أسس الحضارة الإسلامية في أرض أقاصي الغرب من أوربا . وكان هشام ورعاً تقياً وفقيهاً متديناً وعلى ذلك إزدهرت دراسات الفقه الإسلامي في عهده ، خاصة وأنه تحمس لمذهب مالك بن أنس وعمل على نشره ببلاده ثم أعلنه في النهاية مذهباً رسمياً لدولته . هذا إلى جانب العديد من نواحي شخصيته مما جعلني أتبع هذا النجم حيث

طلع . وهكذا جمعت عنه الكثير من المادة العلمية التى أتاحها لى هــذا العدد الهائل من المصادر والمخطوطات التى أتيح لى الاطلاع عليها بمكتبات إسبانيا المختلفة ، هذا عدا العديد من الأبحاث للأساتذة الأسبان من المستشرقين وغيرهم وخاصة من أتيح لى الاحتكاك بهم فى جامعات ومعاهد أسبانيا ، وممن درست على أيديهم أيضاً .

كذلك فقد أفدت من دراسات من سبقنى فى هذا الميدان من الأساتذة العرب ، القدامى منهم والمحدثون . وهكذا فحينما عدت إلى مصر تابعت دراسة الموضوع حتى اكتملت لى المادة العلمية فرأيت أن أعرض لتلك الشخصية بالدراسة والتحليل فى هذا البحث الذى أقدمه اليوم راجياً أن أكون قد وفقت فى إجلاء الكثير من الغموض الذى يكتنف جوانب تلك الشخصية ، إلى جانب أحداث العصر الذى عاش فيه والتى شارك فيها هذا الأمير العلَم هشام الرضا.

ويهمنى أن أنوه إلى نقطة هامة فى هذا الموضوع وهى أننى اعتمدت أساساً فى أسماء الأعلام والأماكن الجغرافية ، والمواقع الحربية . . . إلخ . على هذه الأسماء كما وردت وترد فى لغتها

الأصلية ، الأسبانية ، مع إيضاح نطقها أو تحريفها إن وجد بالعربية .

وإنى لأرجو أن أكون بهذا قد وضعت لبنة فى صرح المكتبة العربية الأندلسية . خاصة ما يتصل منها بدراسة الأعلام.

والله ولى التوفيق ؟

د . أحمد إبراهيم الشعراوى

تمهيد

حينما استتب الأمر للعرب بعد فتوحاتهم لشمال إفريقيا وأخضعوا هذه البلاد لسيطرتهم التامة ووجدوا أن فتوحاتهم فى هذا الاتجاه الغربى قد وصلت حتى البحر المحيط بدءوا يتطلعون بأبصارهم ناحية الشمال عبر البحر المتوسط . ولا شك أن لإقامة العرب واستقرارهم ببلاد المغرب واحتكاكهم بأهل البلاد من البربر ، وكذا بالحامية القوطية التى بقيت على مدينة سبته بقيادة « چوليان » ، لا شك أن لهذا أثره الكبير فى جذب أنظار العرب ناحية الشمال إلى شبه الجزيرة الأيبيرية التى كان يكتنفها الصراع على الحكم بين الأحزاب القوطية المختلفة . وقد لعب هذا القائد « چوليان » دوراً أساسياً فى هذا وتحالف مع العرب وسهل لهم أمر العبور إلى الناحية الأخرى من البحر المتوسط واستطلاع أمور شبه الجزيرة الأيبيرية بأنفسهم . وهكذا صمم العرب على أن يتجهوا بفتوحاتهم إلى أسبانيا .

وعلى مدى عامين اثنين فقط توالت خلالها الحملات بقيادة القائدين طارق بن زياد وموسى بن النصير ، تحولت البلاد من الحكم القوطى إلى الحكم العربى ، وكان فتحاً عظيما للعرب

وللإسلام بتلك البلاد التى عن طريقها انتقلت فيما بعد الحضارة العربية إلى سائر بلاد أوربا .

وقد دخل العرب إلى أسبانيا على اختلاف قبائلهم وعصبياتهم القديمة ، ولم يكن العرب هم العنصر الوحيد الغازى بل إن الجزء الأكبر من جيوشهم التى كانت الطلائع الأولى لفتح الأندلس كانت تتألف أساساً من البربر الذين خضعوا فى شمال إفريقيا للحكم العربى واعتنقوا الإسلام وأخذوا فى التعرب بتعلم اللغة العربية . وعلى هذا فليس بغريب إذن أن يبدأ صراع مرير بين العرب بعضهم وبعض بعصبياتهم القبلية المختلفة من ناحية وبينهم وبين البربر من ناحية أخرى وذلك عقب استقرارهم مباشرة بأرض الأندلس .

وظهر هـذا الصراع واضحاً منذ البداية خلال المرحلة الأولى للتاريخ العربى الإسلامى بإسبانيا والمعروفـة « بعصر الولاة » . هؤلاء الولاة الذين كانوا يعينون حكاماً للأندلس من طرف الخليفة الأموى بالمشرق . وهـكذا استمر الحال إلى سقوط الدولة الأموية .

وكما هو معروف فعقب قيام الدولة العباسية أسرع العباسيون بتتبع الأمويين فى كل مكان وأعملوا فيهم القتل وقامت المذابح التى كانت حافزاً قوياً دفع أحد أمراء البيت الأموى إلى الفرار

من وجه العباسيين والتخفى حتى وصل إلى فلسطين ومنها إلى مصر ثم اتجه غرباً ليسيح فى شمال إفريقية متقلباً فى نواحيها المختلفة . هذا الأمير هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى جعل من قصة هروبه ومن شجاعته وجلده وذكائه وحسن تصرفه أسطورة تتناقلها الأجيال .

وفد هذا الأمير على بلاد المغرب شريداً طريداً لا مال له ولا أهل ولا عصبية فأخذ يتنقل بين القبائل المختلفة حتى إستقر له المقام لدى قبائل « نفذة » بأقصى شمال المغرب فى ناحية ثغر طنجة. فأقام بين تلك القبائل حيناً ، وكان له بينهم أخوال إذ كانت أمه بربرية من سبى تلك القبائل . وكان لهذا الأمير خلال قوية باهرة ولم يكن ليرضى بأقل من الزعامة التى كان فى نفسه اعتقاد راسخ بأنه ولد لها ، فأخذ يتطلع إلى المعالى ، ولكنه رأى أنه غير مستطيع تحقيق أى من هذه الأمور العظيمة فى بلاد المغرب بين هذه القبائل البربرية المتنافرة الصلبة المراس ، كما أنه حتى لم يكن آمناً على نفسه وهو بينهم لأن العباسيين يجدون فى طلبه أينما حل. وعلى هذا فقد رأى أن يختار لتحقيق أمانيه أرضاً أخرى بعيدة كل البعد عن العباسيين فتطلع بأنظاره عبر البحر المتوسط إلى العدوة الأندلسية حيث البلاد التى طالما سمع عن خيراتها وعن جمالها الشىء الكثير من موالى أسرته . ولم يضيع عبد الرحمن الوقت

فأرسل مولاه (بدرا) ليستطلع له الأحوال وليتصل بموالى بنى أمية ويعرض عليهم أمر عبد الرحمن . وهكذا تم الأمر واستطاع عبد الرحمن انتهاز فرصة الصراع القبلى بين العرب بأرض الأندلس فتحالف مع فريق ضد فريق وضرب بعضهم ببعض واستخلص فى النهاية الأمر لنفسه ، ليصبح أول أمير أموى على البلاد التى كانت ملكا لآبائه فى أرض أوربا والتى استطاع انتزاعها من العباسيين .

ويدخل عبد الرحمن الأندلس لينهى عصر الولاة بما اكتنفه من صراع وفتن ويقيم إمارة أموية مستقلة ويصبح معروفاً بالأمير عبد الرحمن الداخل .

ولاشك أن الناحية الأولى والرئيسية التى كان على عبدالرحمن الداخل أن يهتم بها هى الناحية العسكرية والحربية بصفة عامة ، فهو أحوج ما يكون إلى تدعيم هذه الناحية ليتمكن من تحقيق مآربه ولتكون درعاً يحميه من قوى أعدائه وهم كثيرون . ولم يغفل عبد الرحمن عن هذا فأولى النواحى العسكرية اهتمامه الأول وقضى طيلة مدة حكمه الذى إستمر لحوالى أربعة وثلاثين عاماً « لم يكسر له فيها جند » على حد تعبير المؤرخين القدامى .

ويموت عبد الرحمن الداخل أو صقر قريش كما أسبغ عليه

هـذا اللقب معاصروه من العباسيين ويترك لولده وخليفته هشام الرضا دولة قوية وملـكا ممهداً .

وكما سنرى لم يـكن هشام هو أكبر أبنائه ولـكنه كان يؤثره على أولاده جميعاً مما سيوجد نوعاً من الصراع بين أبناء عبد الرحمن وخاصة عقب وفاته ، ومما سيضطر الأمير الجديد هشام أن يحمل السلاح ضـد أخويه اللذين خرجا على ملـكه وعلى طاعته .

ويتقدم الأمير الجديد هشام بالسياسة الأموية التى وضع أساسها والده قدماً ليـكمل ما بدأه والده ويضيف إلى ذلك الشيء الـكثير . وكان هشام بطبعه فاضلا متديناً ولذا نراه يولى الناحية الدينية إهتماماً كبيراً ، ولشغفه بالفقه والدين ودراسة المذاهب المختلفه وخاصة المذهب المالـكى نراه يتحمس لهذا المذهب ويعلنه فى النهاية مذهباً رسمياً للبلاد .

والواقع أنه إذا كان عبد الرحمن الداخل قد وضع أساس الإمارة الأموية بالأندلس واهتم فى سبيل ذلك بالنواحى العسكرية قبل غيرها ، فإن هشام الرضا قد اهتم أكثر بالنواحى الحضارية المختلفة ليـكمل الصورة الباهرة للأندلس الإسلامى ، كما يتضح من بحثنا هذا ؟

الفصل الأول

هشـام الرضا

ابن عبد الرحمن الداخل وخليفته على الأندلس

(١)

التعريف بهشام

نسبه — كنيته — لقبه — مولده — والدته — عمره حينما تولى الإمارة — صفاته — نقش خاتمه — أولاده — زوجته — مواليه — رجال دولته .

هو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . ثانى الأمراء الأمويين بالأندلس . يكنى أبا الوليد ، ويعرف بهشام الرضا(١) لعدله وفضله . ولد بمدينة قرطبة Córdoba عاصمة الدولة الأموية بالأندلس أثناء فترة حكم والده الأمير عبد الرحمن الداخل فى شهر شوال من عام ١٣٩ هـ ـ أوائل عام ٧٥٧ م ، ويكاد يكون هناك إجماع على هذا التاريخ(٢) .

وكانت أمه أم ولد تدعى حلل ، بارعة فى الحسن ومن أحب نساء عبد الرحمن إليه وأقربهن لقلبه وأكثرهن نفوذاً عنده . وكانت من أولى الهدايا التى قدمت إليه بعد استقراره بدار الإمارة بقرطبة .

---

(١) هكذا أسماه والده عبد الرحمن حيث رأى فيه وليداً يجمع الكثير من صفات الكمال . وقد حرفت هذه الكلمة فى بعض المراجع الى « الرِّضى » ، كما كتبت فى بعضها الآخر بالياء هكذا « الرِّضَى » . وما ورد بالمتن هو الأصح لشموله وشيوعه . أنظر : مخطوط الحلة السيراء ج ١ ص ٢٣ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ ، وأنظر أيضاً : كوندى Conde ص ٨٤ ، ص ١٠٧ .

(٢) يذكر المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٣١٧ أنه ولد فى شهر شوال سنة ١٣٧ هـ . أما المستشرق الإسبانى كوندى فيقول فى كتابه :
Historia, de la, dominación de los árabes en España, p. 84.
فى معرض حديثه عن عبد الرحمن الداخل أنه لأربع خلون من شوال سنة ١٣٩ هـ المقابلة لسنة ٧٥٦ م ، ولد له ابن أسماه هشاماً . هذا بينما نجد المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال Lévi Provençal فى مؤلفه الشهير Historia de España يؤيد التاريخ الهجرى الذى ذكره كوندى ، ويقول إنه يقابل اليوم الأول من شهر مارس عام ٧٥٧ م .

وقد اختلفت الروايات في إسمها[٣] ، ولكن من المؤكد أنه حُلل ، ويؤيد ذلك العلامة الهولندي دوزي[٤] Dozy كما يذكر قصة إهدائها لعبد الرحمن حين يقول في معرض حديثه عن عبد الرحمن حينما استولى على دار الإمارة بقرطبة بعد هزيمته ليوسف الفهري ، أن أم عثمان زوجة يوسف حضرت بصحبة ابنتيها تطلب الأمان والحماية من الأمير عبدالرحمن ، وقالت له : يابن العم ، كن كريماً معنا كما كان الله كريما معك . فتأثر عبد الرحمن من كلامها وبما حاق بها وبناتها وهن جميعاً يرتبطن بعائلته بصلة نسب وقرابة فأمر من وقته بإحضار «صاحب الصلاة» وهو إمام المسجد وأحد أصحاب يوسف الفهري ولما حضر هذا طلب منه عبد الرحمن أن يستضيف هاتيك النسوة عنده ، ورد إليهن كل ماكان عسكره قد استولوا عليه منهن من مجوهرات وغيره . وتعبيراً عن سرورهن قدمت إليه إحدى بنات يوسف هدية متواضعة هي إحدى جواريها الجميلات وهي شابة تدعى حلل . وهي التي ستلد له فيما بعد ابنه هشام ثاني الأمراء الأمويين بأسبانيا .

كان هشام في الثلاثين من عمره حينما ولي الإمارة بعد موت أبيه ، أبيض أشهل مشرباً بحمرة ، وبعينيه حول . وكان نقش

(٣) ذكر ابن عذاري في البيان المغرب ج ٢ ص ٦١ أنها تدعى جمال . وذكر عبد الواحد المراكشي في المعجب ص ١٩ أن اسمها حوراء . أنظر أيضاً : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢١٩ .

(٤) أنظر : Historia de España, T. IV, p. 93. Historia de los Musulmanes de España, p. 291.

خاتمه « بالله يثق هشام ويعتصم » . أنجب خمسة ذكور وخمس إناث عددهم النويرى (٥) واحداً واحداً فقال :

« كان له من الأولاد عبد الملك الأكبر ، والحكم الوالى بعده ، ومعاوية ، والوليد (٦) ، وعبد العزيز ، وخمس إناث » .

هذا رغم أن ابن عذارى المراكشى (٧) يذكر أن أبناءه الذكور ستة . وزوجته أم ولده وخليفته الحكم الأول هى أم ولد تدعى زخرف . ومن مواليه فرجون ويقال له فرج . أما وزراؤه فقد ذكر صاحب البيان المغرب أنهم ثمانية ، ومنهم أبو عثمان صاحب الأرض ، ويوسف بن بخت وشهيد بن عيسى . وأما حجابه فهم : عبد الواحد بن مغيث إلى أن توفى ، ثم ولده عبد الملك وهو رجل الأندلس جمع الحجابة والوزارة والكتابة والتقدم على الجيوش ، مع حسن الأدب والعفاف والدين والتواضع والكرم والمروءة . وكتابه اثنان : فطين بن سلمة ، وخطاب بن يزيد .

وقاضيه : المصعب بن عمران . وأصحاب شرطته : الحسن بن

---

(٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٢٢ ص ١٧٩ .

(٦) ورد ذكر الوليد هذا فى التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار جـ ١ ص ٣٧٩ تحت رقم ١٠٧٧ فى الكلام على معاوية بن محمد .

(٧) أنظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٦١ .

بسام ثم على بن حزين المدنى ثم سعيد بن عياض اليحصبي . وذكر صاحب البيان المغرب أن عبد الغافر بن أبي عبدة من أصحاب شرطته أيضاً .

وهؤلاء جميعاً هم أهم رجال الدولة فى عهد الأمير هشام الأول الرضا .

(٢)

هشام ولى العهد

اختيار هشام لولاية العهد ـ حكمة الأمير عبد الرحمن فى تعيين خليفته ـ تفضيل هشام على بقية إخوته ـ إعداده لتولى الإمارة بعد والده ـ الحقد بين الأخوين هشام وسليمان ـ تولية هشام ـ محاولة أخيه عبد الله الاستقلال بالأمر ـ البيعة لهشام .

لما توفى عبد الرحمن الداخل خلفه ابنه هشام بعهد منه . ولم يكن أكبر ولده ، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة Toledo من قبل والده ، ولم يك ثمة نظام خاص لولاية العهد بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام يجريه وفقاً للمصلحة العامة ولم يكن انحصاره فى ولد الأمير أو أسرته سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية سارت عليه الدولة الأموية فوضعت بذلك فى الدول الاسلامية أسس الأسر الملوكية والعروش المتوارثة وكان من الطبيعى بعد أن ظفر عبد الرحمن الداخل الأموى بإحياء تراث أسرته المندثر فى المشرق أن يصل ما انقطع وأن تقوم من هذا الفرع الأموى أسرة ملوكية جديدة تتعاقب فى العرش وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب . وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ولده هشاما وآثره بهذا الاختيار لما توثق فيه من المزايا والمواهب الخاصة .

لم يكن هشام بقرطبة العاصمة حينما توفى والده بل كان بماردة Mérida والياً عليها من قبل والده كما كان أخوه الأكبر سليمان بطليطلة ، فقام بالأمر مؤقتاً أخوهما عبدالله المعروف بالبلنسى وبعث إلى أخويه بالخبر فسار هشام تواً إلى قرطبة حيث أخذت البيعة له فور وصوله وقام بأمر الدولة . ويجمع المؤرخون على أنه خلف

والده فى إمارة الأندلس بطريقة سلمية ، ويذكر بعضهم أن عبدالرحمن حينما حضرته الوفاة وابنه هشام بماردة وابنه الآخر سليمان بطليطلة ، وكل ابنه عبدالله المعروف بالبلنسى وقال له : من سبق إليك من أخويك فأبرأ إليه بالخاتم والأمر ، فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الناس (١) (وفى رواية أخرى : وحب الشاميين له)(٢) فلما قدم هشام قبل سليمان نفذ أخوه عبد الله وصية والده وسلم إليه إمرته وأدخله القصر .

وهذا القول إن دل على شىء فإنما يدل على حكمة عبد الرحمن فهو لم يرد تعيين خليفته ولا إرغام الناس على تقبل هشام . وأما أنه كان قد ولاه العهد أثناء حياته فهذا لكى يلفت النظر إلى رأيه هو الشخصى فى هشام حيث كان يتوسم فيه الشهامة ويرى أنه أصلح أبنائه للقيام بالأمر من بعده .

والحقيقة أن عبد الرحمن كان يفضل ابنه هشاماً على كل أبنائه الآخرين ، وذلك لعلمه وأدبه وأخلاقه وشجاعته وتدينه وصلاحه . فكان والده يحبه ويعده للقيام بالأمر من بعده ، ويمرنه على شئون

(١) أنظر : أعمال الأعلام ص ١١ وما بعدها ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها .

(٢) أنظر : Historia de España, t. IV, p. 93.

الحكم المختلفة، ولهذا أعلنه ولياً للعهد. ويتضح هذا جلياً في مواقف ومناسبات مختلفة.

فمثلا يذكر صاحب البيان المغرب (٣) أنه في سنة ١٥٢ هو ثار رجل من البربر ادعى أنه من ولد الحسن بن علي، وكان أصله من مكناسة العدوة وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمي وتجمع له الغوغاء. وقد قام الأمير عبد الرحمن بن معاوية على رأس جيشه للقاء هذا الثائر والقضاء على تلك الفتنة فخرج من قرطبة وخلف بها ابنه هشاما.

ويتكلم ابن الأبار (٤) عن هشام فيقول: « استوزره أبوه عبدالرحمن وأخاه كبيره سليمان المولود بالشام تنويهاً بحالهما وأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس مشورته، وكانا يركبان متداولين ومتناوبين لا يجتمعان. فإذا كان يوم هشام تأهبت حاضرو المجلس من كبار أهل المملكة والإفاضة في الحديث إلى إنشاد شعر أوضرب مثل أوذكر يوم من أيام العرب أوذكر حرب أو اجتلاب حيلة أوحكاية تدبير أو إحماد سيرة. وإذا كان يوم سليمان خفي من ذلك كله وانبسط الحاضرون في غث الأحاديث وأخذوا في

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٤) مخطوط الحلة السيراء ص ٢٧ .

الدعابة » . وهذا يبين لنا ولاشك مدى علم وأدب هشام ، وحيث أن عبد الرحمن نفسه كان أديباً ومحباً للآداب والعلوم فقد كان لذلك يؤثر ابنه هشاما على سليمان .

وفى نفس هذا الموضوع يذكر المقرى (٥) حكاية عن إيثار عبد الرحمن لابنه هشام دون سليمان فيقول : «كان الداخل كثيراً مايسأل عن ابنيه سليمان وهشام فيذكر له أن هشاما إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال وما أشبه ذلك . وإذا حضر سليمان امتلأ سخفاً وهذياناً ، فيكبر هشام فى عينه بمقدار مايصغر سليمان . وقال يوما لهشام : لمن هذا الشعر :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله أومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

فقال له : ياسيدى ، لأمرىء القيس ملك كندة ، وكأنه قاله فى الأمير أعزه الله . فضمه إليه استحساناً بما سمع منه وأمر له بإحسان كثير وزاد فى عينه .

ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال . لعلهما لأحد أجلاف العرب ، أمالى شغل غير حفظ

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣ وما بعدها .

أقوال بعض الأعراب ؟ فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر مابين الاثنين من المزية » .

ويذكر المقرى أيضاً (٦) فى كلامه عن عبد الملك بن عمر بن مروان الأموى حين قاد جيش عبد الرحمن الداخل ضد أهل غرب الأندلس فهزم اليمانية وأهل أشبيلية ، وذلك فى بداية أمر عبد الرحمن بالأندلس أن عبد الملك قد جرح فأتاه عبد الرحمن وجرحه ينزف وسيفه يقطر دما وقد لصقت يده بقائم سيفه فقبل بين عينيه وجزّاه خيراً وقال له : يابن عم قد أنكحت « ابنى وولى عهدى هشاما » ابنتك فلانة وأعطيتها كذا وكذا وأعطيتك كذا ولأولادك كذا وأقطعتك وإياهم كذا ووليتكم الوزارة .

هذه العبارة فيها تصريح من عبد الرحمن نفسه بتولية إبنه هشام العهد تمهيداً ليتولى الإمارة من بعده . من هذا كله يتضح أن عبد الرحمن كان يفضل أن يخلفه ابنه هشام ، وكان فعلا يعده لهـذا الأمر دون سائر أخوته ، ولهذا أيضاً أعلنه ولياً للعهد . ويتفق معنا فى هذا الرأى معظم المؤرخين من الأجانب والمستشرقين أيضاً وخاصة الأسبان ، فالمؤرخ الإسبانى بلييه Bleye يؤكد هذا ويقول إن إخوة هشام الذين يكبرونه فى السن لم يرضوا عن ذلك إطلاقاً وعلى وجه الخصوص سليمان ، وعبد الله اللذين ثارا على أخيهما

(٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٦ وما بعدها .

هشام (٧) .

وأما كوندى (٨) Conde فيحكى بالتفصيل قصة تولية هشام العهد كما يذكر تاريخ ذلك فيقول إنه فى نهاية عام ١٧٠هـ جمع عبد الرحمن فى العاصمة قرطبة ولاة أقاليم أسبانيا الستة ، وهى :

طليطلة Tóledo ، ماردة Mérida ، سرقسطة Zaragoza ، فالنسيا Valencia ، غرناطة Granada ، مرسيه Murica ، وأيضاً اثنتا عشرة حاكما من حكام المدن الهامة بصحبة وزرائهم الأربعة والعشرين ، واجتمع هذا العدد فى قصر الأمير بحضور حاجبه وقاضى قضاته وكتابه ومستشاريه ، وأمام هذا الجمع أعلن عبد الرحمن تولية ابنه هشام ولاية العهد . وقد أقسم هؤلاء جميعاً قسم الولاء والطاعة والإخلاص للأمير عبد الرحمن فى حياته ولابنه هشام من بعده .

كما يذكر كوندى سبب تفضيل هشام على سائر إخوته فيقول إن الأمير عبد الرحمن كان دائماً يفضل إبنه هشاما على إبنيه الآخرين سليمان وعبد الله رغم أن هشاماً يصغرهما سناً ولكن هشاماً أثبت دائماً شخصيته الفذة وطيبته وعدله وكرمه واستقامته إلى جانب علمه وأدبه ، ولهذا كله كان والده يحبه . ويقول البعض إن والدة هشام كانت قد ملكت على الأمير عبد الرحمن قلبه ،

(٧) Manual de Historia de España, T. I, p. 409.

(٨) Historia de la Dominación de los Arabes en España, p. 160.

ولهذا كانت إرادتها هى النافذة وأنها أغرت عبد الرحمن بتفضيل ابنها دائماً . ولكن حتى لو كان هذا حقاً فيجب ألا ننسى أن الأمير عبد الرحمن الشاعر والأديب والعالم كان يحب هذه الصفات فى إبنه هشام ولهذا فقد كان يفضله لعلمه وأدبه .

والحقيقة أن أخويه سليمان وعبد الله لم يكن ليرضيهما ذلك فحقدا على هشام، ولكنهما لم يستطيعا إظهار ذلك فى حياة والدهما. هذا وقد كانا حاضرين فى الاجتماع الذى أعلنت فيه ولاية العهد لهشام ولكن أحداً منهما — رغم عدم رضائهما عن ذلك — لم يعترض أو يفصح عن عدم رضائه ولو بكلمة ، ربما احتراما لوالدهما ، ولكنهما على أى حال أضمرا العداء لأخيهما .

هذا إلى جانب الحقد الذى يشكل فى الواقع صراعاً مريراً بين حزبين : فسليمان الإبن الأكبر لعبد الرحمن قد ولد بالمشرق وقضى فترة شبابه هناك ، ثم ذهب إلى الأندلس فى إمارة والده الذى أقامه حاكما على طليطلة ، فهو بحكم تربيته ونشأته كان شامياً بمعنى الكلمة . ولذا التفت حوله العناصر والقبائل الشامية فكان سليمان يمثل الحزب الشامى .

أما هشام فقد ولد بالأندلس ، بمدينة قرطبة ، ومن أم إسبانية فهو يمثل الحزب الأندلسى وقد أقامه والده حاكما على ماردة .

وقد اشتدت المنافسة بين الحزبين ، أى بين الأخوين وذلك

أثناء حياة والدهما . ويروى المؤرخون على سبيل المثال أن الشاعر الشامى أبو المخشى ، وهو من شعراء سليمان عرض يوماً بهشام فى بعض أبيات له ، وكان ضمن الحاضرين شخص تعصب لهشام فقبض على الشاعر وقطع لسانه وسمل عينيه(٩). ومن طرائف ما قيل فى هذه فى الواقعة أن هذا الشاعر نبت له لسان جديد ، وأن هذا دعا الفقيه الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المعروف أن يصدر فتوى فحواها أنه لا يجوز طلب الدية فى مثل هذه الحالات إلا بعد مرور عام .

كذلك نسب البعض إلى هشام أنه هو الذى فعل كل ما تقدم بالشاعر أبو المخشى ، وهذا مما لا يتفق وطبيعة وشخصية الأمير هشام التى أبانت عن نفسها فى أكثر من موضع .

ونحن إذ ننقى هذه الأقاويل التى لا تتفق وواقع الأمور ، إلا أننا بذكرنا لهذه الحادثة نستدل بها على مبلغ الصراع والعداء بين الأخوين . والأمير عبد الرحمن الداخل نفسه كان قلقاً من هذا العداء بين ولديه ولكنه لم يجد له حلا ، وفى نهاية حياته كان يفكر

---

(٩) هذه القصة أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة . أنظر : مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ص ٣٥١ وما يليها . وأما أبو المخشى هذا فهو الشاعر عاصم بن زيد ابن يحيى بن حنظلة . ووردت سيرته بالتفصيل فى بحث للمستشرق الأسبانى إلياس تيريس . أنظر . مجلة الاندلس العدد الأول سنة ١٩٦١ ص ٢٢٩ .
Elías Téres : El poeta Abul-Majšī y Hassana la Tamimiyya.

كثيراً فى أمر الدولة ومآلها من بعده ، وكذا فيمن سيخلفه من أبنائه رغم إعلانه ولاية عهده لابنه هشام ، وتوفى عبد الرحمن بعد أن ترك وصية غامضة لابنه عبدالله يوصيه بأن يسلم العرش لمن يدخل قرطبة أولاً من ولديه كما أسلفنا من قبل . ويؤكد ذلك ويذكره بالتفصيل المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال(١٠) Lévi Provençal إذ يقول إن عبدالرحمن فى نهاية حياته كان متردداً جداً قبل أن يتخذ قراراً بتعيين ابنه هشام ولياً للعهد . وحينما حضرته الوفاة أمر ابنه عبد الله أن يسارع بتسليم عرش الإمارة لأحد أخويه اللذين يكبرانه من يصل منهما أولا إلى قرطبة . ثم أضاف عبد الرحمن قوله : فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنّه وبخدته وحب الشاميين له . ويلخص لنا ابن الأثير(١١) الموقف كله بين الأخوان الثلاثة عقب وفاة والدهم فى تلك العبارات الجامعة إذ يقول : « كان عبد الرحمن قد عهد إلى ابنه هشام ولم يكن أكبر ولده فإن سليمان كان أكبر منه ،

(١٠) Historia de España t. IV, p. 93.

(١١) الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٨٤ ويتفق مع ما رواه ابن الأثير كل من سيمونيت ، ليفى بروفنسال ، أنظر :

Simonet : Historia de los Mozárabes de España, p. 277.
Lévi Provençal : Historia de España, t. IV, pp. 91, 2.

وإنما كان يتوسم فيه الشهامة والاضطلاع بهذا الأمر فلهذا عهد إليه ، ولما توفى أبوه كان هو بماردة متوالياً لها وناظراً فى أمرها ، وكان أخوه سليمان — وهو أكبر منه — بمدينة طليطلة وكان يروم الأمر لنفسه ويحسد أخاه هشاماً على تقديم والده له عليه وأضمر له الغش والعصيان ، وكان أخوه عبد الله المعروف بالبلنسى حاضراً بقرطبة عند والده فلما توفى جدد عبد الله البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده وكتب إلى أخيه هشام يعرفه بموت والده والبيعة له فسار من ساعته إلى قرطبة فدخلها فى ستة أيام واستولى على الملك وخرج عبد الله إلى داره مظهراً الطاعة وفى نفسه غير هذا ». أما كوندى(١٢) فيصف لنا بيعة هشام عقب وفاة والده بقوله أنه بعد وفاة عبد الرحمن بن معاوية وبعد انتهاء مراسم الدفن نودى بابنه هشام خليفة له ، وحين علم هشام بذلك قام بجولة فى شوارع مدينة ماردة يصحبه فيها فرقاً عظيمة من الخيالة ثم توجه إلى مسجد المدينة حيث ألقيت خطبة جامعة دعى له فيها كأمير الأندلس الجديد ، وكذلك كان الحال فى كل المساجد بجميع أنحاء أسبانيا ، وتردد هتاف الناس فى كل مكان بالدعاء والابتهال إلى الله أن يحفظ الأمير هشام بن عبد الرحمن . ولم يكن هذا بطبيعة الحال ليرضى أخويه سليمان وعبد الله إذ رأى

(١٢) Historia de la dominación de los árabes en España, p. 107.

كل منهما ، وخاصة سليمان أكبرهما ، أنه أحق بالإمارة من أخيه هشام ، وعلى هــــذا فقد حاول كل من جانبه وعلى قدر استطاعته أن يحول بين هشام وبين هذا الأمر فى الحين ولكنهما سيفشلان فى ذلك كما سنرى . فعبد الله حاول أن ينتهز الفرصة ، خاصة وأنه موجود بالعاصمة قرطبة ، ليستقل بالأمر لنفسه إذ لم يكن مقتنعاً بتفضيل هشام عليه فى احتلال عرش والده فسارع بترك بيته والتوجه إلى قصر الإمارة للإقامة فيه ، وانتظر أن يحضر الوزراء وكبار رجال الدولة لتقديم التهنئة له ، ولكن أحداً لم يفعل ، وخاب ظن عبد الله وفترت همته ، ولما رأى مقاطعة أهل قرطبة له والدعاء والهتاف لأخيه هشام سارع بالكتابة إليه كما طلب منه أن يأذن له بالذهاب إلى ماردة للإقامة والعيش فيها وحثه على المجىء بأقصى سرعة .

ووصل هشام إلى قرطبة حيث استقبل من أهلها بكل مظاهر الحفاوة والفرح ، وخرج عبد الله للقاء أخيه واستقبله استقبال الملوك ، وفى الحال جدد الطلب بأن يذهب إلى ماردة ، وطلب منه هشام أن يبقى فى صحبته بضعة أيام ، ولكنه ألح برغبته فى الخروج من قرطبة التى لا يحس بأية رغبة فى البقاء فيها ، وهكذا أذن له الأمير هشام وخرج عبد الله لتوه من المدينة .

وأما سليمان فإنه بعد أن علم بالأمر حاول أن يستقل

بما تحت يده من مدن ومقاطعات بل وأكثر من هذا فقد أخذ بيعة أهل طليطلة — وقد كان والياً عليها — وما جاورها لنفسه وخرج علانية على أخيه هشام الأمير الجديد .

ولكن بوصول هشام إلى قرطبة واعتلائه عرش الإمارة نراه يضع حداً لكل هذه المحاولات الفاشلة ، ولو أن الأمر سيستغرق وقتاً ليس بالقصير ، وسيكلفه كثيراً .

وهكذا يرتقى هشام الرضا عرش الأندلس . وقد بويع له فى مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ الموافق للسابع من أكتوبر سنة ٧٨٨ م بعد ستة أيام من موت والده(١٣) . وكانت سنه فى ذلك الحين ثلاثون سنة(١٤) .

---

(١٣) يذكر ابن الأبار أنه ولى الإمارة سنة ١٧١ هـ : مخطوط الحلة السيراء ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١١ وكذلك أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ ٢ ص ١٢ ولكن ما ورد بالمتن هو الأصح بعد التحقيق .

(١٤) يذكر عبد الواحد المراكشى أن سنه كانت حينذاك خمس وثلاثون سنه : المعجب ص ١٩ ولكن ما ورد بالمتن هو الأصح : أما سليمان فقد كانت سنه حينذاك اثنين وأربعين سنة .

الفصل الثاني

حروب الأمير هشام

(١)

ضد أخويه سليمان وعبد الله

خروج أخويه عليه وسبب ذلك - خروج سليمان بطليطلة - وصول عبد الله إلى طليطلة وتحالفه مع سليمان - بدء الحرب - خروج سليمان من طليطلة قاصداً العاصمة - موقعة "بلشج" - حصار طليطلة - خروج سليمان إلى شقندة وهزيمته - هزيمته في ماردة وفراره - عودة الأمير هشام إلى قرطبة - عبد الله وتسليم طليطلة - تتبع الحكم بن هشام لسليمان - حكمة الأمير هشام في نصائحه لابنه الحكم - طلب سليمان الأمان وعفو الأمير هشام عنه - إبحار سليمان وعبد الله إلى شمال أفريقيا .

رأينا كيف ارتقى هشام الرضا عرش الإمارة بعد وفاة والده في ظروف عصبية بسبب عداء أخويه سليمان وعبد الله له وحقدهما عليه وعدم رضائهما عن توليه الإمارة .

وكان هذا الموقف هو الشرارة الأولى في اندلاع نار الحروب التي استمرت متأججة طيلة ، حكم الأمير هشام الأول الرضا إذ أن أخويه لم يقفا موقفاً سلبياً بل سارعا بعد توليته مباشرة إلى الخروج عليه وإشعال الثورات ضده في أنحاء متفرقة من الأندلس وأخذا يعملان على تأليب الخاصة والعامة ضده ، وطلب الأمر لأنفسهما .

وبطبيعة الحال انتهزت العناصر الأخرى تلك الفرصة ، فقامت بثوراتها ضد الأمير الشاب كما سنرى ، وكان على هشام أن يواجه تلك المصاعب الداخلية ، وأن يحارب في أكثر من جبهة في وقت واحد ، هذا إلى جانب ما كان يشغله من تأمين حدوده والعمل على توطيد سياسته الخارجية . وكما يقول المقري أن هشاماً « قاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً ، ثم كانت له دائرة له »(١). وقد واجه الأمير الشاب هذا كله بما عرف عنه

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٦ .

من قوة وشجاعة ، وحزم وحلم وصبر وإيمان فكان له النصر على أعدائه سواء فى الداخل أو فى الخارج .

ففيما يختص بأخويه نرى أن سليمان الذى كان يعادى أخاه هشاماً من زمن طويل، نراه يقيم بطليطلة حيث توفر له الأمن وتهيأ الجو للثورة على الأمير الجديد ، وبالفعل لا يضيع سليمان الفرصة ويهب من وقته للخروج عن طاعة أخيه والثورة ضده مستغلا كل ما استطاع من إمكانيات . الأخ الثانى عبد الله خرج من قرطبة كما أسلفنا عقب تولى الأمير هشام وتوجه للإقامة بماردة ولكنه يسارع إلى الانضمام إلى أخيه سليمان بطليطلة حيث يتحالف الإثنان ضد أخيهما ويقومان بثورة عارمة عليه . والحقيقة التى تتضح من إجماع المؤرخين هى أن أخويه لم يتركا له أية فرصة بل خرجا عليه بمجرد توليه ، فسليمان الذى كان بطليطلة والياً عليها كان أول من خرج على الأمير هشام وهذا يتضح من قول صاحب البيان المغرب نقلا عن الرازى : «ولما صار الأمر إلى هشام واتصل ذلك بسليمان أخيه أخذ بيعه أهل طليطلة وما جاورها لنفسه وغلب عليها وشغله أمر أخيه هشام»[٢] . وهذا ما يؤكده ابن خلدون فى كلامه عن تولية هشام إذ يقول : «ولما هلك

---

(٢) البيان المغرب ح ٢ ص٦٢ وانظر أيضاً
Los Mozárabes, t. 1, pp. 112, 13.

عبد الرحمن كان ابنه الأكبر سليمان والياً على طليطلة وكان ابنه هشام على ماردة ، وكان قد عهد له بالأمر ، وكان ابنه عبد الله المسكين حاضراً بقرطبة فأخذ البيعة لأخيه هشام وبعث إليه بالخبر فسار إلى قرطبة وقام بالدولة ، وغص بذلك أخوه سليمان فأظهر الخلاف بطليطلة »(٣) .

هذا ما كان من أمر سليمان الذى لم يقر إمارة أخيه هشام . وأما عبد الله فقد كان موجوداً بقرطبة عند أخيه هشام الذى كان يؤثره ويبره ويترضاه ويفضله على الكثيرين من إخوته ، ولكنه لم يكن راضياً تمام الرضا وطمحت نفسه إلى الإمارة التى كان يحسبها من قبل فى يده والتى حاول الاستئثار بها عقب وفاة والده وقبل وصول أخوه هشام إلى قرطبة ولكنه فشل فى النهاية كما رأينا من قبل ، ولكنه الآن وبعد سبعة أشهر من وفاة والده لا يرضى من أخيه هشام إلا بمشاركته فى الأمر ، وعلى ذلك فقد خرج إلى أخيه سليمان بطليطلة ، ولما بلغ الأمر إلى الأمير هشام أشفق من ذلك وأخرج إليه من يرضيه ويرده فلم يدركه ومضى حتى قدم طليطلة فدخل على أخيه سليمان .

والواقع أن عبد الله هذا ظل طيلة حياته غير راض عن إمارة الأندلس ، وحاله هذه يصفها صاحب المغرب فى حلى المغرب

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ١٢٤ .

إذ يقول : « عبد الله بن سلطان الأندلس عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام المرواني . ذكر صاحب السقط : أنه سمت نفسه بعد أبيه لطلب الأمر فناقض أخاه هشام بن عبدالرحمن سلطان الأندلس ، وشايع أخاه الخارج عليه سليمان بن عبد الرحمن وكان حريصاً محروماً مما طلبه ، حارب أخاه هشاماً ثم حارب ابن أخيه الحكم ابن هشام ثم حارب عبد الرحمن بن الحكم . وفي مدة كل واحد منهم يهزم ويقصى وبعد ذلك لا يني عن طلب الأمر ، وآل أمره مع عبد الرحمن إلى أن خطب في جامع مرسيه Múrcia ودعا على الظالم بينهما فعاجله الله بالمنية دون بلوغ أمنية »(٤) . ويذكر كوندي(٥) أن سليمان هو الذي استدعى أخاه عبد الله الذي كان بمارده في ذلك الحين ، وذلك ليتفقا على خطة موحدة ضد أخيهما الأمير هشام فيقول أن سليمان حينما علم بوجود أخيه عبد الله بماردة كتب إليه إن يحضر إلى طليطلة ليتفاهما معاً في أمورهما وأعمالها الخاصة ويتفقا معاً على العمل لما فيه صالحهما ، وهكذا سار عبد الله إلى طليطلة دون علم أو إذن الأمير هشام الذي علم بذلك عن طريق أحد أعوانه في ماردة ، وعلى أي حال فقد اتفق الأخوان الثائران على أن يستقل كل منهما بولايته استقلالا كاملا

---

(٤) المغرب في حلى المغرب جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٥) Historia de la dominación de los árabes en España, p. 108.

عن حكم أخيهما أمير قرطبة ، وكان فى هذا ولا شك خروجاً سافراً عن طاعة الأمير هشام . وهكذا تحالف الأخوان ضد أخيهما .

وهكذا سارت الأمور حتى كانت الشرارة الأولى التى أشعلت نيران الحرب بين الفريقين : هشام من ناحية ، وسليمان وعبد الله من الناحية الأخرى . وذلك أن سليمان وعبد الله كانا قد حاولا استمالة وزير طليطلة غالب بن تمام الثقفى ليصبح مستشارهما الخاص لإضفاء صبغة الشرعية على أعمالهما ، ولكن غالب بن تمام رفض هذه المحاولات وأصر على الرفض وكان يرى أن ولاءه يجب أن يكون أولا وأخيراً لمولاه أمير قرطبة ، فما كان من سليمان إلا أن قبض على غالب وكبله بسلاسل الحديد وساقه إلى السجن ، وعلم الأمير هشام بهذا التصرف من جانب أخيه سليمان وبدأت نوايا الأخوين تتكشف له ، فكتب إلى سليمان أنه قد علم بما جرى للوزير غالب وأنه لحفاظه على رجال دولته المخلصين يود الوقوف على تفاصيل ما جرى وذكر أسبابه دون أى إبطاء . وحينما وصل الرسول بخطاب الأمير إلى سليمان غضب هذا الأمير غضباً شديداً ، وفى سورة غضبه أرسل بإحضار غالب من السجن وأمر به فصلب فى حضرة رسول الأمير ، ثم وجه سليمان خطابه إلى هذا الرسول قائلا : قل لسيدك أن يتركنا نحكم فى مقاطعاتنا الصغيرة هذه ،

فإن هذا لا يعدل الظلم الفادح الذى أنزله بنا . وقص عليه أيضاً ما رأيت من قيمة أوامره لنا .

وحين عاد الرسول بهذا للأمير هشام لم يجد الأمير بدآ من إعلان خروج أخويه على الدولة وأن يجمع جيشه ويتقدم به إلى طليطلة فيحاصرها ، وهكذا كتب هشام إلى كل الولاة وحكام المقاطعات والأقاليم المختلفة فى دولته باعتبار أخويه أعداء للدولة وكذا كل من شايعهما أو ناصرهما أو دعا لهما ، وحذر هشام بضرورة تحصين المدن والقلاع وغلقها فى وجهيهما والدفاع عنها ضدهما ، وعدم إيوائهما أينما يلجآن . كذلك سارع هشام الى إعداد جيش من الفرسان والمشاة بلغ حوالى العشرين ألف محارب وقاده الى طليطلة .

أما سليمان فلم يقف مكتوف الأيدى ، وقد كانت الأنباء تترى إليه فلم ينتظر وصول هشام بل نراه يجوب كل أنحاء مقاطعته فيجمع حوالى خمسة عشر ألف محارب ويخرج بهم مسرعاً من طليطلة يريد انتهاز فرصة خروج هشام من قرطبة ومنتوياً أن يصل هو إليها فيضرب ضربته القاضية باستيلائه على العاصمة نفسها . أما طليطلة فقد ترك بها إبنه وأخاه عبد الله ليقودا عملية الدفاع عنها . واصل سليمان سيره حتى وصل إلى جيّان Jaén ، وحين اقترب من حصن بلج فوجىء بجيش هشام قبالته ، ووقعت الحرب

شديدة بين الطرفين وذلك فى سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ م) وهزم سليمان وفر عائداً إلى طليطلة ، وتتبعه هشام بجيشه إلى طليطلة حيث حاصرها وكان سليمان قد حشد وجمع بها خلقاً كثيراً (٦).

وحينما طال أمد الحصار خرج سليمان من طليطلة مستخفياً وخلف أخاه عبد الله ـ الذى كان قد دافع عن المدينة فى عزم وقوة ـ وابنه دخل المدينة ، ونهض يطوى المراحل يريد انتهاز الفرصة وإضرام نار الثورة ضد أخيه فى سائر أنحاء الدولة . وبلغ هشاماً هذا الخبر ولكنه لم يكترث لذلك وأقام على حصار طليطلة إذ كان يريد القضاء على هذه الفتنة فى دارها ، ولكنه فى الوقت نفسه وجه إبنه عبد الملك ليقتفى أثر سليمان .

سار سليمان حتى وصل إلى شقندة Secunda (٧) فدخلها وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين ومدافعين عن أنفسهم وعن المدينة وفى هذا الوقت اقترب عبد الملك ، ولما علم سليمان فر متجهاً إلى ماردة . وكان عامل ماردة من طرف هشام هو حُدَيْر المعروف

---

(٦) أنظر المرجع السابق ص ١٠٨ ومايليها . ويتفق كوندى مع مايورده ليفى بروفنسال من تفاصيل عن هذه الموقعة ، وكلها لاتخرج عما أوردناه هنا فى هذه الصورة المختصرة .

(٧) شقنده Secunda مدينة قريبة من قرطبة وهى المعنية هنا بهذا الإسم، وهى غير Sagunto فهذه الأخيرة بلدة أخرى تقع قرب بلنسية . ويخلط البعض بين الإسمين ولذا لزم التنويه .

بالمذبوح فلما علم بمقدم سليمان خرج إليه محارباً وهزمه ، ففر سليمان إلى جبال بلنسيه Valencia ولجأ إلى بعض ثغور تدمير Tudmir فى أرض مرسيه .

ويعلق المؤرخ إزيدرو على موقف سليمان هذا بقوله إن الحظ لم يكن بجانبه فى تنفيذ خطته التى أراد من ورائها الاستيلاء على قرطبة نفسها فإن هذه الخطة انهارت انهياراً كاملا بسبب سرعة اكتشافها ، وهكذا اضطر سليمان وجماعته إلى التقهقر والدفاع عن أنفسهم متراجعين إلى أرض تدمير وجبال بلنسيه .

أما كوندى فيقدم وصفاً تفصيلياً لحال سليمان بعد موقعة بلج ويقول أنه فشل فى خطته للاستيلاء على قرطبة رغم أنه فى البداية استولى على أحد الحصون بالقرب من المدينة ولكنه اضطر إلى الجلاء عنه والفرار تحت ضغط أهل قرطبة وفرسانها ، ولجأ سليمان إلى الجبال وحاول من ملجئه الاتصال بوزير ماردة وقوادها ورجال الكلمة فيها لاستمالتهم إلى جانبه ، ولكنهم بدلا من الاستماع إليه خرجوا ضده وأخذوا فى مطاردته مما اضطره فى النهاية إلى التراجع إلى أرض تدمير . هذا ما كان من أمر سليمان .

وأما الأمير هشام فقد أقام على حصار طليطلة مدة شهرين وعدة أيام ثم قفل عنها بعد أن قطع أشجارها وخرب ما حولها

وعاد إلى قرطبة بينما سليمان يحاول جاهداً إهاجة الرأى العام فى تدمير ضد الأمير هشام .

أما عبد الله فإنه حينما رأى ما حل بأخيه سليمان انصرف إلى أخيه الأمير هشام بلا عهد ولا أمان فتلقاه الأمير بالترحاب والصفح وأكرمه وأحسن إليه وأنزله عند إبنه الحكم ، وذلك فى سنة ١٧٤ هـ وتسلم منه طليطلة .

وتقدم لنا المصادر المختلفة تفاصيل هذه العملية كلها فتجمع على أن عبد الله حينما رأى ما حل بأخيه وبأهل طليطلة حينما طال الحصار من نقص فى المعدات والمؤن وهبوط الروح المعنوية بين المدافعين عن المدينة انتهز فرصة عودة الأمير هشام إلى قرطبة وسارع إلى استدعاء ابن أخيه سليمان الذى كان يتولى قيادة الدفاع معه والذى كان قد خرج من المدينة على رأس بعض الفرق المسلحة محاولا مناوشة قوات هشام وكسر الحصار عن المدينة ، وحينما حضر اتفق معه عبد الله على تسليم المدينة للأمير هشام والدخول معه فى اتفاق سلام وأمن إذ أنه من المستحيل أن يتخلى هشام عن طليطلة كما أنه من المستحيل أيضاً على المدينة أن تستطيع مقاومة أى حصار أكثر من هذا نظراً لسوء حالتها من كافة الوجوه . وهكذا تم الاتفاق بين الإثنين ، وخرج عبد الله برفقة وزيره وبعض قواد الجيش متجهين إلى قرطبة ، وحينما وصل الركب إلى

قصر الأمير هشام تقدم الوزير معلناً للأمير مقدم أخيه عبد الله . واستقبله هشام استقبالا حسناً واتفق على تسليم طليطلة ونسيان الماضى ، كما وعد هشام بمعاملة سليمان بنفس الطريقة إن هو حضر إليه . ثم خرج الأمير هشام بصحبة أخيه عبد الله وبرفقته فرسان الحرس وتوجهوا جميعاً إلى طليطلة حيث تم تسليمها للأمير فى بهجة وسرور عظيمين ، وتوجه ركب الأمير مباشرة إلى القصر يصحبه أخوه وابن أخيه ورجال الجيش والحرس والحاشية وأقيم الاحتفال بهذه المناسبة وكأن اليوم يوم عيد ، ومنح هشام أخاه عبد الله أحد المنازل الملكية لينزل به قريباً من طليطلة فى منطقة أمينة . وقد أمن هشام أهل طليطلة وعفا عنهم حينما دخلوا فى طاعته وهذا من جميل أخلاقه وحسن شمائله .

فى نفس العام (١٧٤ هـ) وبعد أن استقرت الأحوال فى طليطلة سير هشام إبنه الحكم فى جيش كثيف إلى تدمير ومعه قائداه المعروفين شهيد بن عيسى ، وتمام بن علقمة وكان بها سليمان حاربوه وخربوا أعمال تدمير ودوخوا أهلها ومن بها وبلغوا البحر فخرج سليمان من تدمير هارباً ولجأ إلى قبائل البربر فى مرتفعات بلنسية واعتصم بتلك الناحية الوعرة . وقد تجلت فى هذه الحرب شجاعة الحكم بن الأمير هشام وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعهد إليه والده فيها بالقيادة ، وكذلك تتجلى هنا حكمة هشام

السياسية والحربية فى تلك النصائح والكلمات التى وجهها لإبنه الحكم عقب المعركة والتى أوردها كوندى(٨) الذى يصور الموقف، كله فى شىء من التفصيل حين يقول أن سليمان لم ييأس حينما وصلته أنباء تسليم طليطلة للأمير هشام بل صمم على المضى فى طريقه محاولا إثارة القلاقل ضد أخيه الأمير الذى حينما تأكد أن سليمان لم يرجع عما اعتزمه وأنه يمضى فى تدمير يؤلب القوم عليه لم يجد بدأ من إصدار الأمر بتعقبه أينما كان ، ثم أعد جيشاً عقد لواءه لابنه الحكم وكانت المرة الأولى التى يتولى فيها الحكم مثل هذه القيادة ولذا فقد أرسل معه والده بعض القواد من ذوى الخبرة والكفاءة وخرج الحكم على رأس مقدمة الجيش من فرق الفرسان وفى اليوم التالى خرج بقية الجيش يصحبه الأمير هشام بنفسه . وحينما وصلت مقدمة الجيش إلى لورقة Lorca تراءى لها المعسكر المعادى ، معسكر سليمان ، ولم ينتظر الحكم وصول بقية الجيش بل سارع مدفوعاً بحماس الشباب وتصميمه وهاجم جند سليمان الذى كان يفوقه كثيراً فى العدد ولكنه استطاع بهجومه الخاطف وحسن تدبيره وصموده فى المعركة أن يفتح ثغره فى صفوف جند عدوه انسالت منها فرسانه لتعمل القتل فى جند سليمان الذين

(٨) Historia de la dominación de los árabes en España, p. 110.

اضطروا إلى الفرار أمام فرسان الحكم تاركين قتلاهم وجرحاهم لتدوسها سنابك الخيل ، وهكذا لحينما وصل الأمير هشام وبقية الجيش لم يكن هناك عدو ليقاتلوه .

وقد امتدح الأمير هشام إبنه الحكم وفرق فرسانه لشجاعتهم وإقدامهم ، ولكنه قدم لابنه النصح مبيناً له أنه وإن كانت الشجاعة والإقدام من متطلبات الحرب إلا أننا يجب ألا نغفل جانب الحذر والتفكير فى عواقب الأمور ، وعلى ذلك فلا يجب أن نركب جانب المخاطرة إذا كنا نستطيع بشيء من الثقة وعدم التسرع أن نضمن تحقيق النصر كاملا ومؤزراً . ثم أضاف هشام أنه كثيراً ما خسر قواد عظام معارك هامة بسبب اغترارهم بقوتهم وعدم تقديرهم جيداً لقوى أعدائهم ولتسرعهم حتى يستقلوا وحدهم بشارات الفخر وعظمة الانتصار دون إشراك ذويهم فى هذا الأمر وبذا تسببوا فى انهيار دولهم وتلطيخ أسمائهم .

ونلاحظ هنا أن الأمير هشام يسير على سياسة ونهج والده فهو يعهد إلى إبنه الحكم بالقيادة وكذلك يوليه طليطلة بعد أن تسلمها من أيدى الثائرين وذلك لتمرينه وإعداده للحكم من بعده تماماً كما فعل والده عبد الرحمن الداخل معه .

بعد كل تلك الهزائم المتكررة أخذ سليمان يائساً فى التنقل من

مكان إلى آخر ، وأخيرا كتب لأخيه الأمير هشام يطلب الأمان فقبله هشام واشترط عليه الخروج عن الأندلس وأعطاه ستين ألف دينار كتعويض عن تركة والده ، وغادر سليمان الأندلس بأهله وولده إلى شمال إفريقيا .

وتحكى لنا مصادر التاريخ المختلفة نهاية سليمان موضحة أنه عقب هزيمته الأخيرة على يد الحكم ابن هشام داخله اليأس ومضى بصحبة بعض فرسانه فى طريق بلنسية دون هدف معين وحينما وصل قرب دانية Dénia أخذت تهاجمه جيوش هشام من كل جانب كما أخذ ينصرف عنه الكثيرين من أتباعه وجنوده ، وهكذا وصل إلى جزيرة شقر Xucar التى يحيط بها النهر من كل جانب حيث شعر بشىء من الاطمئنان ومن هناك كتب إلى أخيه الأمير هشام يرجوه نسيان الماضى وأن يمنحه عفوه وأمانه كما فعل مع أخيهما عبد الله ، وسارع هشام بمنحه العفو والأمان إلا أنه زيادة فى الطمأنينة اشترط عليه أن يخرج إلى مدينة طنجة أو أية مدينة أخرى حسب ما يرى ليستقر فى الشمال الإفريقى ، وقبل سليمان ذلك فمنحه الأمير هشام ستين ألف مثقال من الذهب تعويضاً له عن أملاكه فى إسبانيا ، وهكذا خرج سليمان متوجهاً إلى المغرب .

فى نفس الوقت نجد أن عبد الله هو الآخر يطلب الإذن من

الأمير هشام ويغادر الأندلس إلى شمال إفريقيا مع أخيه سليمان حيث يبقى بها حتى موت الأمير هشام .

وهكذا تدخل سنة ١٧٥ ه ويكون الأمير هشام قد ارتاح من العقبة الكؤود التى شكلت خطراً خطيراً على دولته منذ اليوم الأول لاعتلائه عرش الإمارة . ولكن ، هل كانت هذه هى العقبة الوحيده ؟

(٢)

ضد الثوار الخارجين عليه

- سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى .
- مطروح بن سليمان بن يقظان بن العربي .
- أبو الحجاج بهلول بن مكلوك .
- ثورة البربر بجهة تاكرنا .

سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى

الواقع أن السنوات القليلة التى قضاها الأمير هشام فى الحكم تتميز كلها بأنها سنوات كفاح وعمل مستمر سواء فى الداخل أو فى الخارج . فنى الداخل ، وإلى جانب الثورة والصراع على السلطة بين الأمير وبين أخويه ، نجد أنه كان على الأمير أن يجابه بعض الثورات الداخلية الأخرى التى قامت بالبلاد والتى استطاع هشام بحسن تدبيره أن يقضى عليها واحدة فى إثر الأخرى .

وقد بدأت الثورة الأولى فى عام ١٧٢هـ-٧٨٨ م حين قام سعيد ابن الحسين الأنصارى ليقود ثورة عارمة فى طرطوشة Tortosa داعياً اليمنية إلى صفوفه ، ولكنه يهزم فى النهاية على يد أحد قواد الأمير هشام ، وهو المدعو موسى بن فرتون بن قسى ، وهو أصلا من منطقة أراجون Aragon فى الشمال ، كما يستطيع موسى أيضاً أن يستولى فى هذه الحملة على مدينة سرقسطة Zaragoza .

والحقيقة أن ثوار الشمال اعتقدوا أن الفرصة قد سنحت لهم بوفاة الأمير عبد الرحمن الأول وانشغال خليفته الأمير هشام فى حرب أخويه ، لإضرام نار الثورة بتلك المنطقة مرة أخرى فخرج بطرطوشة واليها سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى الذى كان قد التجأ إلى تلك الناحية منذ مصرع أبيه ، ودعا إلى اليمانية وتعصب لهم فاجتمع له خلق كثير .

وإذا اتبعنا أحداث تلك الثورة نجد أنها تتلخص فى أن سعيداً هذا بدأ خروجه على الأمير هشام حينما عين الأمير أحد الولاة الجدد على مدينة طرطوشة فرفض سعيد أن يسلم المدينة للوالى الجديد يوسف العبسى وقام بثورته ضد الأمير هشام ، ولكن حاكم بلنسية موسى بن فرتون بمساعدة المضرية استطاع هزيمة الثوار والاستيلاء على سرقسطة فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى إسمه جحدر فى جمع كثير فقاتله ، ويقال إن موسى قتل فى تلك المعركة . وعلى أى حال فإن هذه الثورة تنتهى بمقتل الثائر سعيد بن الحسين الأنصارى فى سنة ١٧٤هـ - ٧٩٠م على يد الوالى أبو عثمان.

هذه الحرب تمثل فى الواقع حلقة فى سلسلة الصراع القديم بين اليمنية والمضرية بالأندلس وإذا تتبعنا أحداثها بالتفصيل نجد أن سعيد بن الحسين حينما خلع طاعة الأمير هشام كتب الأمير إلى عامله على بلنسية أن يخرج دون تأخير لتأديب الثائر ، وبالفعل خرجت قوات بلنسية لتشتبك مع الثائر خارج مدينة طرطوشة ، وبعد معركة حامية اضطرت قوات الثائر إلى الانسحاب وتبعتها قوات بلنسية التى وقعت فى كمين للثوار فقتل منها أعداد ضخمة وكان ضمن القتلى والى بلنسية موسى بن فرتون(١) نفسه الذى

(١) يذكر البعض أنه موسى بن حدير . أنظر : كوندى ص ١٠٩ ومابعدها .

سارعت قواته إلى الانسحاب . وحينما علم الأمير هشام أسرع بإصدار أوامره إلى ولاة غرناطة Granada ومرسية أن يقوموا بارسال جيوشهم إلى بلنسية لتسكون تحت إمرة واليها الجديد أبو عثمان أن يخمد الثورة ويقتل الثائر سعيد بن الحسين فى معركة فاصلة . وهكذا تنتهى ثورة سعيد بن الحسين الأنصارى ويتخلص الأمير هشام من أحد العوامل التى شكلت خطراً كبيراً على دولته فى الداخل .

مطروح بن سليمان بن يقظان بن العربي

فى نفس الوقت الذى كان الأمير هشام مشغولا فيه بمحاربة أخويه ، وفى نفس العام الذى ثار فيه سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى فى طرطوشة — ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) — هبت عاصمة أراجون فى ثورة عارمة ضد الأمير هشام . فإن أحد أبناء سليمان ابن يقظان بن العربى حليف شرلمان القديم ثار فى برشلونة Barcelona وبعد أن استتب له الأمر تقدم ليحتل سرقسطة التى كانت قوات الأمير هشام قد انتزعتها من يد الثائر سعيد بن الحسين الأنصارى ، كما احتل وشقة Huesca مستغلا فرصة انشغال الأمير هشام فى حرب أخويه وبعد مركزه فى قرطبة عنه . ولكن فى سنة ١٧٥ هـ ٧٩١ م حينما فرغ هشام من أمر أخويه ، وكذا من ثورة سعيد ابن الحسين الأنصارى ، سير إلى هذا الثائر جيشاً كثيفاً بقيادة أبو عثمان عبيد الله بن عثمان فسار إلى طرطوشة وانتزعها من أيدى الثوار ، ثم تقدم وحاصر سرقسطة وبها مطروح وصحبه وضيق عليها الخناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار وبدؤا يفكرون فى تسليم المدينة ، ولكن مطروح كان يعارض معارضة شديدة ويستبد برأيه وصبر أصحابه عليه بادىء الأمر ثم أضمروا له العداء حينما تمادى فى استبداده . وفى أحد الأيام خرج مطروح آخر النهار يتصيد ومعه صاحبان له هما : عمروس بن يوسف ، وابن صلتان

قد انفرد بهما عن بقية أصحابه ، فلما أرسل بازيه على طائر ونزل على الصيد ليذبحه فاجأه صاحباه بأن انقضا عليه بسيوفهما فقتلاه واحتزا رأسه وتقدما به إلى عبيد الله بن عثمان وكان وقتها بطرطوشة فتحرك مسرعاً إلى سرقسطة فلم يمتنع عليه أحد من أهلها بل كاتبوه بالطاعة فقبل ذلك منهم ودخل المدينة ، وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام الذى تسلم رأس الثائر الثانى بتلك الناحية من دولته وبذلك قضى على الثورة فى تلك الأنحاء .

أبو الحجاج بهلول بن مكلوك

أما الثائر الثالث بتلك الناحية من الدولة أيضاً فيحكى لنا كوندى قصته بالتفصيل حين يقول أن قائد منطقة الحدود الشرقية لأسبانيا أبو الحجاج بهلول بن مكلوك قد انتهز فرصة ثورة سليمان وعبدالله أخوى الأمير هشام عليه ، وقام هو الآخر داعياً إلى الثورة فاستولى على سرقسطة ، وانضم إليه حكام مدن برشلونة ، ووشقة وتريازونا Iuriazona وسارع والى بلنسية أبو عثمان إلى الوقوف ضدهم فأعد جيشاً ضخماً من المشاة والفرسان واشتبك مع الثوار فى مواقع عديدة أحرز فيها النصر وانتزع منهم المدن التى ثاروا بها[٢].

والحقيقة أن تلك المدن قد ملت تعدد الثورات والقيادات ، وهاج الرأى العام بها ورأى ألا يكون هناك ولاء إلا للأمير والحاكم الشرعى هشام الرضا ، ولذا فقد انقلبوا على الثوار وساعدوا جيش الأمير وفتحوا له أبواب مدنهم التى استولى عليها أبو عثمان وكتب بذلك إلى الأمير فى قرطبة مرسلا إليه رؤوس القواد وزعماء الثورة . وفرح هشام بهذا وكتب إلى قائده المظفر أبو عثمان بأن يبقى فى مناطق الحدود تلك لتأمينها منتظراً وصول الإمدادات

---

(٢) لم تذكر المراجع العربية شيئاً عن هذا الثائر الذى ورد ذكره فى بعض الكتب الأفرنجية . أنظر كوندى :

Historia de la dominación de los árabes en España, pp. 111, 12.

التى سيبعث بها إليه حتى يستطيع استرداد المدن التى كان المسلمون قد فقدوها فى تلك النواحى .

وهكذا تنتهى تلك الثورة أيضاً فى صالح الأمير هشام .

ويلاحظ أن تعدد الثورات فى هذه المنطقة بالذات يرجع أولا وأخيراً الى أنها منطقة الحدود المجاورة لدولة الفرنجة ، وقد كان الفرنج دائماً يعملون على تأليب الناس ضد الدولة الأموية بالأندلس لتحقيق مكاسب شخصية لهم فى تلك الأراضى ، ولا ننسى تحالف الزعيم الفرنجى الأكبر شارلمان مع الحكام العباسيين ضد بنى أمية بالأندلس ، وهكذا كان الفرنج يستميلون الحكام المسلمين فى تلك النواحى المتاخمة لهم بشتى الوسائل والسبل حتى يكونوا باستمرار شوكة فى جنب الدولة الأموية الإسلامية بإسبانيا ، وهكذا كانت الثورات تتوالى على هذه المنطقة بالذات .

ونلاحظ أن هشاما استطاع أن يتغلب على كل تلك الثورات فى هذه الناحية من دولته رغم انشغاله فى نفس الوقت فى ميادين أخرى كثيرة ، ولكن هذا يعود الى حزمه وشجاعته وأيضاً الى رجال دولته ومعاونيه المخلصين أمثال ذلك القائد المظفر أبو عثمان عبيد الله بن عثمان .

ثورة البربر بجهة تاكرنا

كانت منطقة رندة Ronda المعروفة بإقليم تاكرنا(٣)، وفيها يحتشد البربر، مهد الفتن والقلاقل المتوالية. فى سنة ١٧٨ هـ — ٧٩٥ م أثار البربر هناك ضرام الفتنة مرة أخرى وخلعوا الطاعة وعاثوا فى تلك الأنحاء فأظهروا الفساد وأغاروا على البلاد وقطعوا الطريق فسير الأمير هشام إليهم حملة بقيادة عبد القادر بن أبان ابن عبد الله مولى معاوية بن أبى سفيان فقصدوها وتابعوا قتال من فيها إلى أن أبادوهم قتلا وسبياً، وفر من بقى منهم فدخل فى سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرنا وجبالها قفراء خالية من الناس حوالى سبع سنوات.

ويذكر ليفى بروفنسال أخبار تلك الثورة فى عبارة موجزة، إذ يقول إنه فى سنة ١٧٨ هـ ثار البربر فى تاكرنا، أحد أقاليم ماردة، ولكن هذه الثورة أخمدت بالنار والدم فى حزم وعنف، حتى إن هذا الإقليم بقى بعد ذلك كالصحراء القاحلة لمدة سبع

---

(٣) هذا الاسم يطلق أصلا على المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة رندة التى كانت تقيم إقليم ماردة وهى التى كان يقطنها البربر، وقد تطور الإسم فأطلقه البعض على الإقليم كله.

سنين(٤) . هذا بينما يؤيد كوندى تلك الأحداث إلا أنه يخالفنا فى ذكر تاريخ وقوعها إذ يذكر أن ثورة البرابرة تلك وقعت فى سنة ١٧٧ هـ(٥) . وعلى أى حال فبانتهاء تلك الثورة تنتهى المصاعب الداخلية التى واجهت الأمير هشام ، ويفوز الأمير بالنصر المطلق فى الجبهة الداخلية فيدعم أركان دولته ليتفرغ للناحية الخارجية .

---

(٤) أنظر Historia de España, t. IV, p. 94.

(٥) يذكر ابن خلدون أن هذه الفتنة وقعت فى سنة ١٧٦ هـ . أنظر تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٢٥ .

أنظر أيضاً : كوندى المرجع السابق ص ١١٣ ولكن ماورد بالمتن حول تاريخ هذه الفتنة هو الأصح بعد التحقيق .

— ٣ —

ضد الدول المسيحية المجاورة

مقدمة عن دولة أشتوريش فى تلك الفترة - هشام والحرب المقدسة - الحرب ضد دولة أشتوريش فى جبهتيها الشرقية والغربية - المعركة الأولى مع برمودو - هزيمة برمودو ونهايته كملك - استيلاء جيش هشام على جيرونه - فتح نربونة فى العام التالى - صائفة سنة ١٧٨ﻫ (٧٩٤م) بقيادة الأخوين عبد الكريم وعبد الملك ابنى عبد الواحد بن مغيث - عبد الملك وما صادفه من صعوبات فى طريق العودة - أقوال المؤرخين فى هذا الشأن - غزو أشتوريش سنة ١٧٩ ﻫ (٧٩٥ م) تحالف ألفونسو مع الباسك والفرنج - تقدم جيش هشام بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد - فرج بن كنانة والتحامه مع جزء من الجيش المسيحى وانتصاره - التقاء جيش هشام بجيش جندمار - هزيمة جندمار وأسره - تقدم عبد الكريم للقاء ألفونسو - فرج يهاجم أوفييدو عاصمة ألفونسو ويستولى عليها - عودة جيش هشام - غزو أنحاء متفرقة فى نفس العام - موت الأمير هشام وتوقف الغزو .

بعد أن انتهى هشام من توطيد أركان دولته فى كافه النواحى الداخلية ، وبعد أن أنهى تلك الثورات التى هددت بلاده ، ساد الدولة نوع من الاستقرار والهدوء . هذا الهدوء ساعد هشاماً دون شك كأمير مسلم فاضل متدين ، وكسياسى ورجل حرب مدرب على أن يفكر فى شن الحرب أو بمعنى آخر مواصلة سياسة الجهاد ضد الدول والإمارات المسيحية المجاورة والتى ما فتئت تؤلب عليه الثورات فى مختلف أنحاء دولته وتخطط لمؤامرات ترمى من ورائها إلى إضعاف قوى المسلمين فى الأراضى الإسبانية والقضاء عليها إن أمكن . ولذا رأى هشام أن يشن الحرب على هذه الدويلات والإمارات ، تلك الحرب التى شغلت كل سنى حكمه ، والتى بدأها بالاتجاه إلى دولة (أشتوريش Asturias) ليحقق ما كان يحلم به والده من كسر شوكة تلك الدولة التى أسسها ألفونسو الأول (Alfonso I) .

وقد أوردت لنا المصادر العربية وصفاً تفصيلياً لهذه الحرب . ولكننا قبل أن ندخل فى هذه التفاصيل ولكى تكتمل لنا الصورة بوضوح ، نجد لزاماً علينا أن نعطى فكرة ولو مبسطة عن تاريخ دولة أشتوريش فى هذه الفترة التى نحن بصدد الخوض فى

تفاصيل أحداثها[١] .

فبعد وفاة ألفونسو الأول مؤسس دولة أشتوريش تولى الملك سيلون Silon زوج ابنته أدوسيندا Adosinda وتوفى سيلون هذا دون أن يترك أبناء ليرثوه ، وكانت زوجته أدوسيندا ذات أطماع وشخصية فذة فأرادت استغلال الموقف لصالحها فبدل أن تترهب وتقضى بقية حياتها فى أحد الأديرة ، كما كانت تفعل أرامل الملوك فى ذلك الوقت حسب التقاليد والعادات الموروثة والتى كانت سائدة خلال العصور الوسطى وكان لها قوة القانون خاصة وأنه قد اعترف بها ونص عليها فى قرار صادر عن أحد المجامع الكنسية التى كانت تعتبر أعلى هيئة تشريعية دينية فى ذلك الحين ، نراها تخرج على ذلك العرف والتقليد ، وفى محاولتها الاحتفاظ بكافة السلطات فى يدها أعلنت ابن أختها ألفونسو الثانى Alfonso II وكان صبياً لا يزال يخطو إلى مطلع الشباب ، أعلنته ملكا مؤملة أن تحكم هى شخصياً متخفية خلف إسمه

---

(١) يلاحظ أن تاريخ دولة أشوريش لايزال غامضاً فى كثير من الفترات والمواضع مما يدفع إلى التخمين ، وقد راعينا قدر الإمكان هنا إيضاح تاريخ الدولة فى هذه الفترة على ضوء الدراسة المقارنة والمعلومات التى استقيناها من الكتب والمصادر الأفرنجية . أنظر: دوزى جـ ١ ص ١٢٧ وما يليها .

Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen-Age, t. 1, p. 127.

وشخصه ، ولكن آمالها هذه لم يكتب لها النجاح فإن عدداً لا يستهان به من رجال الدولة ومن الأساقفة بصفة خاصة وقفوا ضد أطماع الأرملة الجريئة فأعلنوا عزل ألفونسو الطفل ونادوا بماوريكات Maurecat ملكاً . وماوريكات هذا كان إبناً غير شرعي لألفونسو الأول ، فهو أخ غير شقيق لأدوسيندا . وقد اضطلع ماوريكات بالأمر ، واضطر ألفونسو الصبي إلى الهرب إلى ألبه Alva واللجوء إلى عائلة أمه حيث عاش بأحد القصور هناك . وأما أدوسيندا فقد اضطرت رغماً عنها إلى الخضوع لتقاليد العصر فأعلنت ترهبها ولجأت إلى أحد الأديرة التي كان زوجها قد بناها وهو دير سان خوان دي براڤيا San Juan de Bravia وذلك في نوفمبر من عام ٧٨٥ م .

وقد ظل الحال هكذا وانفرد ماوريكات بالحكم إلى أن توفي سنة ٧٨٩ م فسارع ألفونسو الثاني إلى العودة من منفاه إلى أشتوريش مرة أخرى في أكتوبر من نفس العام ليعلن ملكا على دولة أستوريش للمرة الثانية . ولم يمض على حكمه قرابة العامين حتى قامت ثورة عنيفة بالبلاد ضده تطالب بعزله ، ولا يعرف على وجه التحديد أسباب هذه الثورة ولا الظروف التي أحاطت بها ، ولكن تزعمها على أية حال رجال ذوي مكانة في الدولة وعلى رأسهم بعض الأساقفة وكبار رجال الكنيسة الذين كانوا طيلة

العصور الوسطى يلعبون دوراً هاماً فى سياسة بلادهم . وهكذا عزلوا ألفونس الثانى للمرة الثانية ، ووضعوا على العرش بدله أحد أقربائه ويدعى برمودو Bermudo وهو أحد رجال الكنيسة ممن يشغلون وظيفة دينية بالكنيسة الإسبانية ، وأما ألفونسو فقد حددت إقامته بأحد الأديرة .

ورغم أن برمودو هذا ، كما يصوره معظم المؤرخين ، كان عطوفاً ذو قلب كبير ، وشجاعاً مقداماً إلا أن قواه العقلية كانت مختلة ، كما أنه لم يكن يجيد شيئاً من فنون الحرب والقيادة - ولسوء حظه فقد بدأ يحكم فى نفس الفترة التى بدأ العرب فيها يهاجمون دولة أشتوريش فى عنف وشدة أيام حكم الأمير هشام .

والواقع أن نصارى الشمال منذ أن اشتد ساعدهم كانوا يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشتد هذا العيث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية .

وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة يشجعون النصارى من البشكنس (الباسك ـ باسكوس Los Vascos والجلالقة جييجوس Los Gallegos)على مواصلة التحرش بالدولة الإسلامية فى إسبانيا ويمدونهم بالعون اللازم من رجال وعدة . وكان الأمير

هشام الرضا كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، وقد مكنه من ذلك حالة الهدوء الذى ساد دولته بعد القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، ثم الدور الذى لعبه الفقهاء الذين كان يغص بهم مجلس الأمير هشام فى الإعداد النفسى والدفع لإعلان الجهاد ضد مسيحيي الشمال الذين كانوا قد تركوا لعشرات السنين يعيشون فى سلام بعيداً عن الخطر الإسلامى . وعلى ذلك سارع الأمير هشام إلى شن الحرب على دولة أشتوريش المسيحية فى جبهتيها : ـ

الشرقية : ألبه وقشتالة (ألباو كاستيا Alva y Castilla)

والغربية : غاليسيا (جاليثيا Galicia) .

الغزوة الأولى :

فى عام ١٧٥هـ - ٧٩١م بدأ هشام خطته فأعلن الجهاد المقدس فى كل أنحاء أسبانيا ، وأرسل رسله إلى مختلف المدن والأقاليم ، وتليت رسائله فى كافة المساجد ، وبدأت حركة جامعة للإعداد للحرب وتدفق المتطوعون بأعداد غفيرة بأسلحتهم وخيلهم طمعاً فى اكتساب ثواب الجهاد الذى اعتبروه واجبهم الأول فى هذه البلاد ، وهكذا استطاع الأمير هشام إعداد جيشين كبيرين : الأول ويبلغ حوالى أربعين ألف مقاتل ويقوده خادم بنى أمية المخلص ،

الوالى والقائد المحنك أبو عثمان سالف الذكر ، وقد توجه هذا الجيش لمهاجمة الجبهة الشرقية لدولة أشتوريش أى لمهاجمة منطقة ألبه وقشتالة . والثانى تحت قيادة يوسف بن بخت لمهاجمة الجبهة الغربية فى غاليسيا . وقد استطاع هذان القائدان أن يحققا نصراً مؤزراً .

فقد صعد الجيش الأول بقيادة أبي عثمان وادى نهر الإبرو Ebro حتى وصل إلى ألبه وهناك تقابل مع الجيش المسيحى فى معركة حامية انتصر فيها المسلمون وهزم الجيش المسيحى هزيمة ساحقة ووقع الكثيرون من قواده وجنوده أسرى فى أيدى المسلمين الذين تقدموا فى الأراضى المسيحية فأخضعوها لسلطانهم واستولوا منها على الكثير من السبي والأسلاب .

وأما الجيش الثانى بقيادة يوسف بن بخت فقد تقدم فى أرض غاليسيا حيث كان الجيش المسيحى بقيادة الملك برمودو الأول ، واستطاع يوسف أن يحمل بعنف على جيش برمودو وينزل به الهزيمة ويعمل القتل فى معظم جنده ثم يتقدم ليخضع كل ما يصادفه من مدن وقرى جامعاً السبي والأسلاب ، ويقال أنه عاد من هذه الغزوة ومعه عشرة آلاف من الأسرى المسيحيين(٢).

---

(٢) أنظر . دوزى المرجع السابق ، البيان المغرب ص ٦٣ وما يليها .

على أية حال فإن هذه الحرب قد كلفت برمودو عرشه ووضعت نهايته كملك إذ بينما كان يناضل على الجبهة محاولا إيقاف تقدم الزحف الإسلامى، انتهز خصومه الفرصة وسارعوا إلى إخراج ألفونسو من معتقله، وحينما عاد برمودو إلى عاصمته عقب الهزيمة الشنيعة التى حلت به لم يجد أمامه من طريق إلا أن يتنازل عن العرش لخصمه ألفونسو مؤثراً العيش فى سلام بعيداً عن جو السياسة والحرب.

كانت هذه هى الغزوة الأولى لهشام ضد دولة أشتوريش المسيحية شمالى دولته.

الغزوة الثانية :

وعقب فترة قصيرة من الراحة والاستعداد واصل هشام غزواته. ففى السنة التالية ١٧٦هـ - ٧٩٢م سير إلى الشمال جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فاستولى أثناء سيره على مدينة جيرونه (خيرونه Gerona)[٣] الحصينة فى قاصية شمال شرقى إسبانيا، بعد أن قتل رجالها وهدم أسوارها

---

(٣) هى مدينة صغيرة فى أقصى شمال شرقى إسبانيا فى منطقة حدودها الحالية مع فرنسا، وهى نفسها التى تسميها المصادر العربية باسم « جرندة » كما فى بعض المصادر الإفرنجية القديمة Gerunda .

وأبراجها ، كما استولى على عدد آخر من المعاقل والحصون ، وبلغ ألبه وقشتاله فأثخن فى نواحيها ، كما توغل فى أراضى جنوب فرنسا وزحف على مدينة نربونة Narbona [٤] قاعدة الثغر الإسلامى القديمة ، ثم عاد بما غنم إلى العاصمة قرطبة .

ويتكلم ليفى بروفنسال عن هذه الغزوة فيقول أن منطقة ألبه هوجمت للمرة الثانية بنجاح كبير بواسطة الجيش الإسلامى الذى يقوده عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، وذلك قبل تنحى برمودو الأول وتولية ألفونسو الثامن بوقت قصير .

الغزوة الثالثة : وأما الغزوة الثالثة فقد كانت فى العام التالى مباشرة ١٧٧ هـ — ٧٩٣ م وهى الغزوة الشهيرة التى استولى فيها المسلمون على مدينة نربونه ، فقد سار عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث — كما يقول صاحب البيان المغرب — « بالصائفة إلى أرض الروم وانتهى إلى إفرنجة فحاصرها وثلم بالمجانيق أسوارها وأشرف على بلاد المجوس وجال فى بلاد العدو ، وبقى شهوراً يحرق القرى ويخرب الحصون »[٥] . وأخيراً هاجم

---

(٤) هى مدينة « ناربون Narbonne » الحالية بجنوب فرنسا ، وتسميها المصادر العربية « أربونه » .

(٥) أنظر : البيان المغرب ص ٦٤ وما يليها .

مدينة نربونه واستولى عليها ، وكان فتحاً عظيماً بلغ فيه خمس السبي إلى خمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب العين ، وهو نصيب الأمير هشام . والرقم مبالغ فيه كما نرى رغم إجماع المراجع عليه وإن كان فى الواقع لا يعبر إلا عن كثرة الغنائم فى تلك الغزوة . وأرغم الأسرى من النصارى على حمل أوجر أحمال من الأحجار والتراب من سور نربونه حتى قرطبة وأمر هشام أن يبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة التى يصفها كوندى(٦) متأثراً بوصف المؤرخين العرب لها حين يقول أن مدينة جيرونه سقطت فى يد الجيش الإسلامى الذى أعمل فيها السلب والتخريب وهدم أسوارها ، ونفس المصير لقيته مدينة نربونه التى أعمل المسلمون السيف فى رقاب المدافعين عنها فكانت مذبحة عظيمة لا يعلم عدد من سقط فيها من الناس إلا الله وحده خالقهم . وقد حصل المسلمون على كميات هائلة من الذهب والفضة وغيرها من هاتين المدينتين حتى أن خمس الغنيمة وهو نصيب الأمير هشام بلغ خمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب ، وحينما بلغت هذه الغنائم وتلك الأخبار قرطبة عم المدينة فرح عظيم . ويضيف كوندى قوله أن الأمير هشام خصص نصيبه من هذه الغنائم لعمارة المسجد الجامع

(٦) أنظر : كوندى ص ١١٢ .

بقرطبة ، كما عين عبد الله بن عبد الملك والياعلى سرقسطة وأمره بالبقاء حيث هو بالشمال لحماية مناطق الحدود .

وأما ليفى برفنسال(٧) فيقدم لنا تفاصيل أكثر عن هذه الحملة المظفرة التى استولى فيها المسلمون على مدينتين من أهم المدن فى ذلك الحين ، فيقول إن القائد عبد الملك بن مغيث فى الفترة بين الصائفتين(٨) الموجهتين ضد ألبه تلقى الأمر لكى يقود حملة ضخمة ضد الخطر الفرنجى القادم من ناحية جيرونه ويتقدم فى البلاد ليصل إلى سبتمانيا Septimania (أراضى جنوب فرنسا الحالية) . وكانت مدينة جيرونه منذ عام ١٦٩ هـ — ٧٨٥ م قد أصبحت تكون جزءاً من مملكة أكيتانيا Aquitania وذلك قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بوقت قصير . وقد تقدم عبد الملك بن مغيث فحاصر مدينة جيرونه وضربها بالمجانيق ، وخربها وهدم أسوارها وأبراجها ولكنه لم يستول عليها ، إذ واصل طريقه دون أن تواجهه أية مقاومة حيث وصل إلى مدينة نربونه ففعل بها مثلما فعل بجيرونه ثم تركها أيضاً . وكان لويس ملك أكيتانيا مشغولا بجيشه فى إيطاليا فأوفد لمحاربة

---

(٧) أنظر : ليفى بروفنسال ج٤ ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٨) لما كان الجو بشمال إسبانيا قارس البرودة شتاء بما لم يتعوده العرب الفاتحون فقد اعتادوا على القيام بحملاتهم فى فصل الصيف ، فسميت الحملة « بالصائفة » ، وجمعها « صوائف » .

العرب جيشاً بقيادة « جيوم » دوق تولوز والتقت الفريقان فى مكان يسمى « ڤيل دِ نىْ » على ضفاف نهر « أوربينا » بين نربونه وقرقشونه Carcasona (وهى مدينة كاركاسون Carcassone الحالية جنوب فرنسا) ونشبت بينهما موقعة اندحر فيها جيوش جيوم رغم استبساله فى القتال واضطر فى النهاية إلى الانسحاب تحت ضغط جيش المسلمين الذى جمع الكثير من الغنائم والأسلاب وارتد مسرعاً إلى الجنوب إلى قرطبة يجر وراءه جيشاً هائلا من الأسرى الفرنج(٩) .

ويلاحظ بعد أن أوردنا هنا بعض الروايات العربية والفرنجية عن هذه الغزوة أن هناك تعارض فى القول وتضارب فى الرأى حولها . فبينما تذكر الروايات الإسلامية أن العرب افتتحوا خلال تلك الغزوة مدينتى جيرونه ونربونه واستولوا عليهما وكذا على بعض المعاقل والحصون فى الطريق نجد أن الروايات الفرنجية المعاصرة تنكر استيلاء المسلمين على المدينتين المذكورتين ولكنها فى نفس الوقت لا تنكر تقدم المسلمين فى الأراضى الفرنجية وفى نفس الوقت تؤكد أن المسلمين ارتدّوا عن نربونه لمناعتها إلى قرقشونه ، وأن الجيش الفرنجى استطاع صد المسلمين الذين ارتدوا إلى الجنوب مكتفين بالغنائم والأسلاب التى عادوا بها إلى قرطبة عاصمة بلادهم .

---

(٩) يذكر ليفى بروفنسال أن خمس السبي وهو نصيب الأمير هشام بلغ ٤٥ ألف شخص ، ويعترف هو نفسه بأن الرقم مبالغ فيه فيقول إننا لكى نكون واقعيين فيجب قسمة هذا الرقم على عشرة إن لم يكن على مائة .

والواقع أن المسلمين لم يُريدوا الاستيلاء على تلك المدن والأراضى بغرض الاستقرار فيها فإنهم كانوا قد اكتفوا بحدود بلادهم حتى جبال البرانس وكانت حملاتهم إلى ما بعد ذلك بغرض التأديب وتأمين حدودهم ليس إلا ، ولذا فلم يكن يهمهم الإستيلاء على تلك المدن قدر اهتمامهم بأن يراعى الفرنج هيبتهم وقوتهم فيبتعدوا عن مضايقتهم وتدبير المؤامرات ضدهم وهكذا كان الحال أيضاً بالنسبة للإمارات المسيحية الشمالية فى داخل شبه الجزيرة الايبيرية نفسها . وأما مسألة الغنائم والأسلاب فواضح فى ذكر بعضها مدى المبالغة ، ولكنها كما سبق أن أوضحنا تعبر عما حققه المسلمون من انتصار وغنم . وهذا هو الرأى عندى بعد تحقيق ومقارنة الروايات المختلفة بعضها ببعض على ضوء الأحداث وروح العصر .

الغزوة الرابعة: فى السنة التالية ١٧٨ هـ — ٧٩٤ م أرسل هشام جيشين لمحاربة أشتوريش كما فعل فى الغزوة الأولى وذلك ليجبر ملكها ألفونسو الثانى على تقسيم جيوشه وتفتيت قواه حيث يضطره إلى الدفاع فى جبهتين فى ذات الوقت . وتوجه الجيش الأول إلى الجبهة الشرقية ليهاجم منطقة ألبه وقشتاله ، بينما توجه الجيش الثانى إلى الجبهة الغربية ليهاجم منطقة غاليسيا . وكان يقود الجيش أخوان هما عبد الكريم ، وعبد الملك ابنى الوالى والقائد عبد الواحد بن مغيث .

وسار الجيش الأول بقيادة عبد الكريم إلى منطقة ألبه حيث قام بهجوم عام خاطف وسريع فأعمل التخريب فى كل ما صادفه واستولى على ما استطاع من الأسلاب ، وعاد بنفس السرعة التى تقدم بها .

أما الجيش الثانى بقيادة عبد الملك فقد تقدم فى أرض غاليسيا وتوجه شطر مدينة أوفييدو Oviedo عاصمة ألفونسو حيث هاجمها بعنف واستولى عليها وخربها ثم تراجع عنها بما غنم يريد العودة ، ولكن الحظ جانبه فى طريق العودة إذ فقد أدلاء الطريق وتاه جيشه بين طرق الجبال الوعرة ، وهنا تمكن جيش أشتوريش مهاجمته فى تلك المناطق وقواه مشتتة وجيشه ممزق فأنزلوا به خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد(١٠) .

ويقدم المؤرخون الأوربيون والإسبان بصفة خاصة وصفاً تفصيلياً لحملة عبد الملك هذه ويطيلون فى ذكر عملية الانسحاب وما صادفه فيها من صعاب ، والنصر الحاسم لجيش ألفونسو .

(١٠) لا تزال إلى اليوم فى أراضى أشتوريش بإسبانيا منطقة تسمى Llamas del Moro ومعناها « أحراش العرب » وهى نفس المنطقة التى تم فيها التقاء الجيش الإسلامى والمسيحى فى هذه المعركة ، وتعرف فى معظم كتب التاريخ باسم Lutos أو Lutis وبجانب هذه المنطقة توجد ساحة كبيرة يسميها الإسبان Campo de la Matanza أى « ساحة القتال » .

الثانى على جيش المسلمين وما كبده ألفونسو لهم من خسائر، كما يبالغون فى ذكر أعداد القتلى من المسلمين ويقولون إن القائد العام لجيشهم قد قتل فى هذه المعركة . وواضح أن هذا من قبيل المبالغة، فالقائد عبد الملك بن عبدالواحد بن مغيث لم يقتل فى هذه الغزوة إذ أننا نجده يظهر على مسرح الأحداث بعد تسع سنوات من هذه الغزوة أى فى عام ١٨٧ هـ — ٨٠٣م ليقود حملة جديدة ضد دولة أشتورش . ويقول المؤرخ كوندى وهو يتكلم عن الغزوة السابقة أنه قتل فيها عدد كبير من المسلمين ومن بينهم أحد القواد ويدعى يوسف(١١). وهذا يؤكد ماسبق أن أوضحناه الآن ولعل الأمر قد اختلط على المؤرخين الإسبان فى سورة حماسهم فخلطوا بين القائد العام وبين بعض قواد الفرق فى جيش المسلمين . وعلى أية حال فقد عادت بقية الجيش بعد عملية الانسحاب هذه إلى قرطبة .

الغزوة الخامسة : فى السنة التالية ١٧٩ هـ — ٧٩٥ م تبدأ الغزوة الخامسة للأمير هشام ضد مسيحيي الشمال ، ويبدو أن الطرفين أخذا فى الاستعداد والتأهب وأعطيا هذه الغزوة أهمية خاصة . فمن ناحية هشام لاشك أنه أراد الانتقام لما نزل بجيشه من خسائر أثناء انسحابه بعد الغزوة السابقة ، كما أراد أن يلقن ألفونسو الثانى

---

(١١) أنظر : كوندى ص ١١٣ .

درساً لا ينساه ، ولذا نجده يعد لهذه الغزوة الجديدة جيشاً كثيف العدد كثير العدة ويعين لقيادته قائده المظفر عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ويأمره بالتوجه ضد دولة أشتوريش .

وأما ألفونسو الثانى ملك أشتوريش فقد كان يرقب هذه الأحداث وهو يعلم تماماً أن جيش هشام لا بد سيعاود الكرة للانتقام وأنه سيكون ولا شك انتقاماً مروعاً . ودب الخوف فى نفس ألفونسو فسارع هو الآخر للاستعداد ، ولما كان يعلم مقدماً أن قواه لا تعينه على الصمود فى وجه جيش المسلمين ، فقد أسرع بطلب العون من الباسك ، كما توجه بندائه إلى مملكة أكيتانيا . ولما كانت دولة الفرنج فى أكيتانيا تحس دائماً بالخطر الإسلامى على حدودها عبر جبال البرانس ولما كان ألفونسو الثانى يرتبط بعلاقات صداقة ومودة مع شارل العظيم «شارلمان» مؤسس دولة الفرنج ويعتبره حاميه والمدافع الطبيعى عنه ويتبادل معه الرسائل التى كان يدعو نفسه فيها دائماً بحليف شارل العظيم ، فإن دولة الفرنج كانت تشعر بأن هناك روابط متينة تربطها بدولة أشتوريش .

وهكذا استطاع ألفونسو الثانى إيجاد حلف مسيحى قوى من الأشتوريين والباسك والفرنج يستطيع به مواجهة المسلمين . وتجمعت الجيوش المتحالفة تحت قيادة ألفونسو الذى سارع إلى

توزيعها فى المناطق الجبلية التى تمتد من كوبادونجا Covadonga حتى الخليج الذى يفصل بين أراضى أشتوريش وغاليسيا ، وذلك ليسد الطريق ويقطعه على الجيش المهاجم . كذلك أمر سكان المناطق السهلة بالجلاء عنها واللجوء إلى الجبال العالية الممتدة على طول الساحل . وكان ألفونسو يرمى من وراء ذلك إلى جذب المهاجمين إلى داخل البلاد حتى تستطيع جيوشه أن تطبق عليهم فى حركة كماشة لا يستطيعون منها خلاصاً ولكن كان على ألفونسو أن يتعامل هذه المرة مع قائد فذ ماهر ، وحريص حذر .

بعد أن استكمل الجيش الإسلامى عدته تقدم بقيادة عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث فوصل إلى مدينة أسترقه Astorga فى أرض غاليسيا وهناك توقف برهة يتلقط أخبار العدو ، ويبدو أنه وقف على شىء من خطة ألفونسو ، ولهذا فإنه حينما بدأ يتقدم أمر فرقة من الخيالة يصل عددها إلى أربعة آلاف فارس بقيادة فرج بين كنانة بأن تتقدم لتفتح الطريق للجيش المهاجم ، وتقدم فرج الذى سرعان مايصطدم بقوة من الجيش المسيحى التى كانت فيما يبدو تحتل مدخل أحد الممرات الجبلية ، ويقع القتال بين الطرفين ، وتنتصر فرقة الفرسان المسلمين وتعمل السيف فى فلول القوة المسيحية وتأخذ الكثيرين منهم أسرى ، ويقال إن هذه الفرقة من المسيحيين أبيدت عن آخرها ، وأعمل المسلمون فيهم القتل حتى من أسر منهم .

وعلى أية حال فقد أخذ الجيش الإسلامى فى التقدم ظافراً مظفراً حيث هاجم المدن وأعمل فيها التخريب وحرق القرى والزروع وواصل تقدمه حتى وصل إلى ضفاف نهر نرثيه Narcea حيث كان يعسكر القائد الفرنجى جندمار Gondemar ومعه ثلاثة آلاف من الفرسان بغرض قطع الطريق وإعاقة تقدم جيش المسلمين ، ولكن عبد الكريم أصدر أوامره بالتقدم ومهاجمة هذه القوة الفرنجية فى الحال ، ووقع الاشتباك على ضفاف النهر وقتل عدد كبير من الفرنج ووقع قائدهم جندمار نفسه أسيراً فى أيدى المسلمين ، وكان ذلك فى شهر سبتمبر من العام المذكور (٧٩٥ م) . ولم يضيع عبد الكريم وقته بل واصل تقدمه ليصل إلى الجبل الذى يحتله ألفونسو ومعه القوة الرئيسية من الجيش المسيحى ، وكان ألفونسو قد علم بتقدم المسلمين المظفر وبهزيمة فرقه الأمامية ، وفرق أعوانه الفرنج ، وهكذا فحينما رأى تقدم عبد الكريم إلى مواقعه سارع بالجلاء عن الجبل واللجوء إلى حصن له كان قد شيده على وادى نلون Nalón جنوب العاصمة أوڤييدو ، وتتبعه عبد الكريم بعمل القتل والسلب والحرق فيما يمر عليه من القرى والضياع حتى أشرف على الحصن ، فلم يجد ألفونسو مندوحة من ترك الحصن والتقهقر إلى عاصمته «مدينة أوڤييدو» ، وسارع القائد العربى إلى احتلال الحصن أحد المراكز الرئيسية على وادى نلون ، واستولى على كل ما كان فيه من الإمدادات والأطعمة والذخائر

و نفيس الأشياء مما لم يتمكن ألفونسو من نقلها معه فى جلائه السريع عن الحصن . وفى اليوم التالى أمر فرج بن كنانة بمهاجمة مدينة أوفييدو ، فتقدم لمهاجمتها ومعه عشرة آلاف مقاتل ، وكانت المدينة فى حالة لا تستطيع معها مواجهة مثل هذا الهجوم ، فلم تكن عمليات التحصين وإعادة بناء وتقوية أسوارها قد تمت بعد بصورة مرضية ولهذا فقد فر ألفونسو منها وتركها لمصيرها المحتوم بين أيدى أعدائه ، ودخلها المسلمون الذين غنموا منها الشيء الكثير .

وقبل أن ننهى حديثنا عن تلك الغزوة ، نسوق هنا أحد النصوص لصاحب البيان المغرب يصف فيه بأسلوبه المعروف أحداث تلك الغزوة فى عبارات جامعة إذ يقول(١٢) :

« وفى سنة ١٧٩ أغزى الإمام هشـــام بن عبد الرحمن ، عبد الكريم بن مغيث بالصائفة حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية [غاليسيا] فبلغه أن إذفونش [ألفونسو] قد حشد بلاده واستمد البشكنش [الباسك] وأهل تلك النواحى التى تليه من المجوس وغيرهم ما بين حيز جليقية والصخرة ، وأنه أذن لسكان السهل بالتفرق فى شواهق جبال السواحل . فقدّم عبد الكريم ،

---

(١٢) البيان المغرب ص ٦٤ ، ٦٥

فرج بن كنانة فى أربعة آلاف فارس ثم رحل فى إثره فالتقى أعداء الله فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله فقتل حماتهم وأسر جماعة منهم ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبث الخيل فى القرى فانتسفت جميع ما ألفته من زروعهم وخربت ما مرت عليه من عمارتهم، وتقدم بعد ذلك إلى واد يقال له كورنيَّة فلقى به غُنْدَمارُه [جندمار] وهو فى ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره، وأخذ غندماره أسيراً وقُتل من أصحابه عدد كبير . وأصاب العسكر جميع ما فى تلك الناحية وتقدم مستنجزاً لإذفونش فلما بلغه قصده إليه تنحى عن الجبل الذى كان فيه منحازاً عنه إلى حصن له كان قد بناه وأتقنه على وادى نلون فتقرب منه عبدالكريم مقتفياً لأثره لا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرقه ولا بمال إلا أصابه حتى أطل على الحصن فانتقل منه إلى حصن ملكه، واحتل عبدالكريم بالحصن الذى انتقل منه فألفى فيه الأطعمة وضروب الذخر، وبعث فى اليوم الثانى من حلوله به فرج بن كنانة فى عشرة آلاف فارس يقفوا أثره فلما قرب منه انهزم عنه وأسلم جميع عدته وذخره فغنم المسلمون جميع ذلك » .

ويبدو أن المسلمين لم يتوغلوا فى أراضى أشتوريش إلى أبعد من ذلك ، فما لاشك فيه أن هذه الغزوة قد حققت كل أغراضنا إلى هذا الحد . ومن ناحية أخرى فقد بدأ يحل فصل الشتاء بما وضع

حداً لتفكير المسلمين فى التقدم شمالا إلى أبعد من ذلك وجعلهم يقررون العودة إلى قرطبة . هذا إلى جانب ما وصلهم من أنباء عن هزيمة إحدى الحملات التى خرجت من قرطبة ، فى نفس الوقت الذى كانوا يهاجمون فيه عاصمة ألفونسو ، وقامت بهجوم خاطف على عدد من المدن والقرى المسيحية ، ولكنها حوصرت فى طريق عودتها بجيوش المسيحيين الذين أنزلوا بها خسائر جسيمة . ولهذا كله قرر القائد عبدالكريم العودة إلى قرطبة وبدأ فعلا فى الانسحاب عائداً بما غنم دون أن يلقى أية صعوبات فى طريق عودته .

ونلاحظ ، بعد هذا العرض الشامل لأهم الغزوات التى قام بها الأمير هشام ، أن أعداءه من المسيحيين رغم استبسالهم فى القتال ، ورغم تكتلهم ضده إلا أنهم لم يستطيعوا الوقوف فى وجهه أو الحيلولة دون تنفيذ خططه فى القضاء على مؤامراتهم وتصفية جيوب المقاومة وتأمين حدود ملكه ، وذلك بفضل همته وشجاعته وحسن تدبيره للأمور . ففى خلال خمس سنوات من فترة حكمه القصير استطاع أن يشن عليهم الحرب فى خمس غزوات متلاحقة خرب فيها مدنهم واستولى على أراضيهم وحصونهم ، وحتى العاصمة المسيحية العتيدة « أوفييدو » استولى عليها مرتين متتاليتين رغم التحالف الكبير والمساعدات القيمة من جانب الباسك والأكيتانيين ، ورغم كل هذا الذى واجهه فى غزوته الأخيرة والذى لم يمنع من

الاستيلاء على تلك العاصمة وتخريبها بعد أن أجبر ملكها على الفرار منها . ومن حسن حظ المسيحيين أن الأمير هشام لم يمتد به العمر إلا لبضعة أشهر عقب تلك الغزوة الأخيرة ففى العام التالى مباشرة توفى الأمير هشام الرضا بعد أن وطد أركان دولته وأشاع الأمن والسلام فى أرجائها وأمن حدودها وأدب جيرانه الذين حفظوا للمسلمين هيبتهم وكرامتهم مما جعل خليفته الأمير الحكم الأول يعيش فترة طويلة من الأمن والرخاء والسلام بعيداً عن أية مضايقات من جانب تلك الدويلات المسيحية فى الشمال .

الفصل الثالث

أمير جليل وآثار جليلة

(١)

أخلاق هشام

حزمه ـ عفوه ـ تواضعه ـ كرمه ـ بره بالرعية ـ تشدده على عماله ـ عدله ـ أمثلة تؤيد كل ذلك .

كان هشام عاقلا حازماً ذا رأى وشجاعة ، محباً لأهل الخير والصلاح ، شديداً على الأعداء ، راغباً فى الجهاد . ويؤكد حزمه أنه فى سنة ١٧٥هـ سجن ابنه عبد الملك لما ثبت له تآمره على الدولة فبقى مسجوناً حياة أبيه وبعض ولاية أخيه الحكم حتى توفى فى سجنه سنة ١٩٨هـ .

وكان هشام كما يصفه المؤرخون بسط البنان فصيح اللسان وسيع الجناب ، أحسن الناس وجها ، وأشرقهم نفساً ، كامل المروءة حاكما بالكتاب والسنة ، قبض الزكوات من طرقها ، ووضعها فى حقها ، لم يأخذه فى الله لوم ولا تعلق به ظلم ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ولا زلة فى أيام صباه ، وكان محباً للعفو فمثلا فى سنة ١٧٥هـ حينما انتهت الحرب بينه وبين أخويه سليمان وعبد الله ، ودخل أهل طليطلة فى طاعته قبلهم هشام وأمنهم وعفا عنهم ، كما عفا أيضاً عن أخويه اللذين أثارا الفتنة ضده فى أول عهده بالحكم. كما كان متواضعاً وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يعود المرضى ويشهد الجنائز ، وكانت هذه شيمته حتى قبل أن يتولى الإمارة ، إذ يحكى النباهى[1] أنه لما توفى القاضى معاوية بن صالح الحضرمى وذلك سنة ١٦٨هـ قبل تولى هشام بحوالى

---

(١) كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ٤٣ .

ربع سنوات ، وكان قاضى قرطبةمن طرف الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من جلة أهل العلم وكبار رجال الحديث صلى عليه هشام بن عبد الرحمن ومشى على قدميه فى جنازته .

وكذلك يحكى ابن القوطية أنه عرض لهشام يوماً عارض وهو صادر عن جنازة ثعلبة بن عبيد إلى داره إذ خرج إليه كلب من دار تجاور مقبرة قريش وهجم عليه فمزق ثوبه ، فقال هشام : يؤمر عامل قرطبة أن يلزم صاحب هذه الدار دفع كذا كغرامة إذا اتخذ كلباً فى موضع يضر فيه بالمسلمين . ثم حينما عاد إلى قصره أمر بإسقاط الغرامة عن صاحب الدار وقال : قد غممنا صاحب الدار أكثر مما غمنا فى ثوبنا[٢] .

وهذه القصة إن كانت تدل على سعى هشام فى الجنائز إلا أنها تؤكد عفوه من ناحية أخرى .

ويجمع المؤرخون على أنه كان كريماً فاضلا متصدقاً ، لذا فكثيراً ما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء والمحتاجين

---

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤١ .

وكثيراً ما كان يلقي بصرر المال في المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ولم يزل هذا مشهوراً في أمره إلى أن مات .

وكان يفتدى أسرى المسلمين من أمواله الخاصة . ويحكى لنا صاحب أخبار مجموعة(٣) أن رجلا مات في أيام هشام وكان قد أوصى بمال في فك سبية من أرض العدو فطلبت فلم توجد احتراساً منه بثغره واستنقاذاً لمن سبي وضعفاً من عدوه عنه ، ولم يقتل أحد من جنده في شيء من ثغوره أو جيوشه إلا ألحق ولده في ديوان أرزاقه . وهذا ما يؤيده ليس فقط المؤرخون العرب بل والأجانب أيضاً ، ، فهذا كوندى يؤيد ما سبق ويضيف قوله أن الأمير هشام كان لهذا محبوباً من شعبه لعطفه وبره وسماحته ، إذ كان عطوفاً على الفقراء من أي ملة أو دين ، وكان يفتدى أسراه وينقذهم من أيدى أعدائه ، وإذا مات أحد جنوده في ساحة الوغى اعتنى بأسرته وأبنائه(٤) .

ومناقب هشام كثيرة ذكرها أهل الأندلس . قال القاضي أبو معاوية : أدركت صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يعلم لها مثل(٥) وكان

---

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ، وأنظر أيضاً : الكامل ص ١٠١ ، نهاية الأرب ص ١٧٩ .

(٤) أنظر : كوندى ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٥) البيان المغرب ص ٦٦ .

هشام من أئمة العدل وبمنزلة عمر بن عبد العزيز فى قومه بالأندلس وعده أبو محمد بن حزم ثالث ثلاثة من العدول فى بنى أمية خاصة . وها هو كوندى يصف هشام ويتكلم عن عدله فى هذه العبارات الجامعة حين يقول : « كان له هيبة ، وكان متديناً ، وعاد لاحريصاً على تنفيذ القانون كل الحرص متفانياً فى حبه للعدل ، ولهذا سمى « العادل » كما كان يدعى أيضاً « الرّضِىّ » لشدة طيبته وحسن خلقه »(٦) . ولذا فقد كان من أشد الناس قمعاً للمسلط من عماله وخدمه ، وكان يختلط بالرعية ويسمع المظالم بنفسه ويبعث إلى الكور بقوم من ثقاته للتحرى عن مسالك العمال وسيرهم بين الرعية فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد فى عقابه .

ويحكى لنا صاحب أخبار مجموعة(٧) أنه تعرض لموكبه ذات يوم رجل متظلم من بعض عماله فحال لجب الموكب عن سماعه ، وكان فى الموكب بعض من يشفق على العامل فبدر إلى المشتكى وستره فى قبته وبسط له الانصاف ووعده إياه ثم كتب إلى العامل بأمره فذهب فى استلطافه واستمالته حتى رضى . فذكر لهشام تعرض المشتكى وانصرافه عنه دون بلوغه إليه فأعظم ذلك

(٦) كوندى — المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٧) أخبار مجموعة ص ١٢١ ؛ وانظر أيضاً : البيان المغرب ص ٦٦ .

وأكبره فقيل له إنه قد أنصف وفعل به وفعل . فقال : إن النصفة للمظلوم لا تكون من الظالم دون تسليط الحق عليه . وبعث فى المظلوم وقال له : أحلف على كل ما ظلمك فيه فإن كان ضربك فاضربه أو هتك لك ستراً فاهتك ستره أو أخذ لك مالا فخذ من ماله مثله إلا أن يكون قد أصاب منك حداً من حدود الله ، فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أقيد منه فكانت تلك الزجرة لجميع عماله أبلغ من السوط والسيف .

ويحكى صاحب البيان المغرب(٨) أنه كان لبعض رجال هشام خصومة فى دار عند القاضى مصعب بن عمران فسجل عليه القاضى وأخرجه منها ، فنهض الرجل إلى هشام وقال له : إن القاضى سجل علىّ فى دارى التى كنت أسكنها وأخرجنى عنها . فقال له هشام : وماذا تريد منى ؟ والله لو سجل على القاضى فى مقعدى هذا لخرجت عنه . وذلك انقياداً منه للحق رحمة الله عليه .

كما يحكى ابن القوطية قصة الشاعر أبو المخشى التى قدمناها من قبل ، وسمل عينيه وقطع لسانه ويقول أن هذا الشاعر قال فى العمى شعراً حسناً ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية فأنشده إياه فرق

---

(٨) نفس المرجع والصفحة السابقتين .

له واستعبر وأعطاه ألفي دينار . ثم يقول إنه لما صار الأمر إلى هشام بعث إليه إذ كان غمه ما حدث له بسببه فأعطاه الدية مضاعفة .

وأما قصته مع الكناني تلك القصة التي تجمع عليها المراجع المختلفة(٩) . والتي تؤكد عدل هشام فتتلخص في أنه قبل إفضاء الخلافة إليه كان قاعداً ذات يوم في غرفة له مطلة على النهر ينظر منها إلى الربض فوقعت عينه على رجل من كنانة كان صنيعة له مقبلا من كورة جيان [خاين Jaén] ، وكان من أهلها ، وكان أبو أيوب أخوه [وهو الأمير سليمان بن عبد الرحمن] والياً بكورة جيان ، فلما رآه قد أوضع في السير وذلك في الهاجرة دعا بعض فتيانه فقال : أرى الكناني صنيعتنا مقبلا ولا أحسبه أقبل به في ذات الوقت إلا أمر أقلقه من أبي أيوب فقف بالباب فإذا بلغك فأوصله إليّ على حاله . فلما بلغ الكناني إليه أوصله إلى هشام ، وكان معه في مجلسه جارية له ، فأسدل الستر عليها ثم قال : ما خبرك يا كناني فلا أحسبك إلا قد همك أمر . قال الكناني : نعم ، قتل رجل من كنانة رجلا خطأ فحملت الدية

(٩) انظر : أخبار مجموعة ص ١٢١ — ١٢٤ ، البيان المغرب ص٦٧ ، ٦٨ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٤ — ٣١٦ .

على العاقلة فأخذ بنو كنانة عامة ، وحيف على من بينهم خاصة ، وقصدني أبو أيوب إذ عرف منك مكاني ، فعذت بك من ظلامتي. قال : يا كناني ، يسكن روعك ، قد تحمل عنك هشام وعن قومك العاقلة . ثم مد يده من وراء الستر إلى لبة كانت على الجارية فأخذها منها فإذا بعقد شراؤه عليه ثلاثة آلاف دينار فدفعه إليه وقال له : أد به عن نفسك وعن قومك وتوسع فى الباقى . فقال : إنى لم آتك مستجدياً ولا ضاق بى مال عن أداء ما حملته ، ولكن لما أصبت بعدوان وظلم أحببت أن يظهر على عز نصرتك وأثر عنايتك . قال فما الوجه الذى تتمناه فى نصرتك ؟ قال أن يكتب الأمير أصلحه الله إلى أبى أيوب فى الإمساك عن أخذى بما لم يجب علىّ ، وأن يحملنى محمل عامة أهلى . فقال : إمسك العقد على حاله إلى أن ييسر الله ما رغبت فيه . ثم ركب هشام فى وقته ذلك إلى الأمير عبد الرحمن وهو بالرصافة ، فقيل له : هشام بالباب . فقال: ما أتى به فى وقته هذا إلا أمر حدث عليه . فلما أوصله ومثل بين يديه قائماً قال له : اجلس . فقال : أصلح الله الأمير ، كيف جلوسى بهم أقلقنى وأحزننى . ثم قص عليه الخبر وسأله إسعاف مطلبه وقضاء حاجته . فقال: اقعد مسعفاً فيما طلبته مجاباً إلى ما سألته ، ما الذى تذهب إليه فى أمره ؟ قال: الكتاب له بالكف عنه وألا يؤخذ بغير ما يلزمه . قال الأمير عبد الرحمن : أو خير من ذلك إذ هو بهذه المنزلة من عنايتك ، أن تؤدى الدية من

بيت مال المسلمين وتحمل عن بنى كنانة عامة حفاظاً لك فيهم وطلباً لك فى أمرهم . فأعظم هشام الشكر فى ذلك . ثم أمر الأمير عبد الرحمن بأداء الدية من بيت مال المسلمين ، وبالكتاب إلى أبى أيوب فى ترك التعرض للكنانى وأهله . فلما حضر خروج الكنانى ووصل إلى هشام لتوديعه قال : يا سيدى إنى قد جاوزت حد الأمنية وبلغت أقصى غاية النصرة وقد أغنى الله عن العقد وها هو ذا فلا أكون مباركا على بنى كنانة فيما يحمل عنهم مشئوماً على الجارية فيما انتزع منها . قال له هشام : يا كنانى لا يرجع إلى شىء خرج على هذه السبيل عنى خذه مباركاً لك فيه وسيعوض الله الجارية خيراً منه .

هذا كله مما يؤكد عدل هشام وصلاحه ، وحسن سيرته فى الرعية .

ونختتم حديثنا عن أخلاق هشام بتلك العبارة التى قالها مالك ابن أنس حين ورد إلى المدينة زياد بن عبد الرحمن اللخمى بعد عام من ولاية هشام فسأله مالك عنه فأخبره عن مذهبه وحسن سيرته ، فقال مالك : « ليت الله زين موسمنا بمثل هذا » .

(٢)

علمه وأدبه

حبه للآداب والعلوم ـ نبوغه منذ صغره ـ شاعرته مع ذكر بعض من شعره ـ حكمته وأمثلة لذلك .

كان الأمير هشام محباً للآداب والعلوم ، ونبغ فى ذلك منذ صغره ، ولهذا فقد كان مفضلا لدى والده كما أوضحنا من قبل .
ويحكى ابن الأبار أن عبد الرحمن الداخل كان قد استوزر ابنيه هشام وسليمان تنويها بحالهما وأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس شورته وكانا يركبان متداولين ومتناوبين لا يجتمعان .
ويضيف ابن الأبار قوله : فإذا كان يوم هشام تأهبت حاضروا المجلس من كبار أهل المملكة والإفاضة فى الحديث إلى إنشاد شعر أو ضرب مثل أو ذكر يوم من الأيام العرب أو ذكر حرب أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير أو إحماد سيرة . وإذا كان يوم سليمان خفى من ذلك كله وانبسط الحاضرون فى غث الأحاديث وأخذوا فى الدعابة(١) .

وفى نفس المقام يقول المقرى أن عبد الرحمن الداخل كان كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام فليذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً ، فيكبر هشام فى عينه بمقدار ما يصغر سليمان . وقال يوماً لهشام : لمن هذا الشعر ؟

(١) مخطوط الحلة السيراء ص ٢٧ .

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله أو من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع برّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

فقال له : ياسيدى لامرىء القيس ملك كندة وكأنه قاله فى الأمير أعزه الله. فضمه إليه استحساناً بما سمع منه وأمر له بإحسان كثير وزاد فى عينه.

ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال : لعلهما لأحد أجلاف العرب ، أما لى شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ؟ فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الإثنين من المزية[٢].

والواقع أن عبد الرحمن كان قد أعطى إهتماماً كبيراً لتعليم وتثقيف ابنيه سليمان وهشام وكان يرقبهما فى حذر وعناية ، وبينما كان هشام يخطو مسرعاً فى تعلمه تحدوه الثقة فى نفسه وتتشكل شخصيته القوية الفذة مع حسن فى أخلاقه ولطف معشره حتى إنه استحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أسبغ عليه وصار علماً على شخصه معبراً عن سماحة طبعه ألا وهو « الرضا » وبينما كان يقبل على دراسة اللغة والفقه والأدب والشعر والتاريخ وسائر العلوم المعروفة فى عصره ، ويبدى اهتماماً خاصاً بالأدب والتاريخ وخاصة تاريخ العرب فى العصر الجاهلى وما يتصل به من شعر ونثر وروايات

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

و . . . الخ ، كان سليمان يأخذ بطرف من هذه العلوم دون أن يبدى أى اهتمام بها بل إنه فى النهاية انصرف عنها غير عابىء بالعلم والثقافة عامة وانصرف إلى لهوه ومجونه ورياضته وصيده. ويجمع المؤرخون على نبوغ هشام منذ صغره وولع والده به ، ويقولون أن عبد الرحمن لما رأى هذا النبوغ المبكر من ابنه هشام اهتم به وأحضر له أحسن المؤدبين وأساتذة عصره فى كافة العلوم ، وحين بدأ يخطو على أعتاب الشباب ولكى يتمرس الحكم والعدل والحياة العامة عهد إليه والده وإلى أخيه الأكبر سليمان بحضور مجالس قاضى الجماعة ، ومستشارى الدولة كما كانا ينظمان الاحتفالات العامة ، ويقيمان مختلف المسابقات الأدبية والعلمية ويشتركان فى هذه المسابقات ، كما يشتركان فى اختيار أجود المتسابقين وفى منح الهبات والعطايا والجوائز .

وكان هشام أديباً وشاعراً ، كما كان خيراً فاضلا جواداً كريماً ، ويؤكد ذلك ما أورده صاحب أخبار مجموعة ، وكذا ابن الأبار من أنه ذكر عنه أن الهوارى دخل عليه فقال : مات فلان عن ضيعة تعود بكذا ونخم له أمرها ، وعليه دين وهى تباع ، وحضه على شرائها . فقال : أنا أريد أمراً إن بلغته استغنيت عنها وإن لم أبلغه فما أقلها ، واصطناع رجل واحد أحب إلى من ضيعة . قال فاصطنعنى بها . فأمر له بثمنها . فأشار بعض من حضر إلى أن

الاستعداد بالمال أعون على درك الآمال، فأطرق هشام ثم قال(٣) :

البذل لا الجمع فطرة الكرم — فلا تُرِدْ فى مالم يرد شيمى
ما أنا من ضيعة وإن نعمت — حسبى اصطناع الأحرار بالنعم
ملك الورى والعباد قاطبة — لا ملك بعض الضياع من هممى
تفيض كفى فى السلم بحر ندى — وفى سجال الحروب بحر دم
تَزِلُّ عن راحتى البدور وما — تمسك غير الحسام والقلم

وهذا ولا شك يبين لنا شاعرية هشام .

وإلى جانب هذا فقد كان هشام أيضاً عالما وحكيما ، ويتضح هذا جلياً من نصائحه لابنه وولى عهده الحكم حينما أسند إليه لأول مرة قيادة الجيش وذلك أثناء الحرب بينه وبين أخيه سليمان إذ أنه حينما وصل الحكم بالجيش إلى لورقة تراءى له المعسكر المعادى ، معسكر سليمان . ولم ينتظر الحكم وصول بقية الجيش بل سار مدفوعاً بحماس الشباب وتصميمه وهاجم جند سليمان الذى كان يفوقه كثيراً فى العدد ، ولكنه استطاع بهجومه الخاطف وحسن تدبيره وصموده فى المعركة أن يفتح ثغرة فى صفوف جند عدوه انسالت منها فرسانه لتعمل القتل فى جند سليمان الذين اضطروا إلى

(٣) أنظر : أخبار مجموعة ص ١٢٠ . أما ابن الأبار فقد أورد القصة ثم زاد عليها هذا الشعر الذي أوردناه هنا بعد تحقيقه — مخطوط الحلة السيراء ص ٢٧ .

الفرار أمام فرسان الحكم تاركين قتلاهم وجرحاهم لتدوسها سنابك الخيل وهكذا فبينما وصل الأمير هشام وبقية الجيش لم يكن هناك عدو ليقاتلوه .

وقد امتدح الأمير هشام ابنه الحكم وفرق فرسانه لشجاعتهم وإقدامهم ، ولكنه قدم لابنه النصح مبيناً له أنه وإن كانت الشجاعة والإقدام من متطلبات الحرب إلا أننا يجب ألا نغفل جانب الحذر والتفكير فى عواقب الأمور ، وعلى ذلك فلا يجب أن نركب جانب المخاطرة إذا كنا نستطيع بشىء من الثقة وعدم التسرع أن نضمن تحقيق النصر كاملا وموزراً . ثم أضاف هشام أنه كثيراً ما خسر قواد عظام معارك هامة بسبب اغترارهم بقوتهم وعدم تقديرهم جيداً لقوى أعدائهم وتسرعهم حتى يستقلوا وحدهم بشارات الفخر وعظمة الانتصار دون إشراك ذويهم فى هذا الأمر وبذا تسببوا فى إنهيار دولهم وتلطيخ أسمائهم .

ويحكى بعض المؤرخين أيضاً ، فى مجال الحديث عن حكمة وتعقل هشام ، أنه لما حضرته الوفاة طلب حضور ابنه وولى عهده الحكم وأخذ يزوده بالنصائح حتى يستقيم له الأمر ومن هذه النصائح(٤) :

---

(٤) أنظر : كوندى ص ١١٥ .

** يا بنى : يجب ألا تنسى أن الملك لله يعطيه لمن يشاء ويأخذه ممن يشاء ، وقد منحنا الله السلطة ووضع فى أيدينا صولجان الملك برحمته الواسعة ، فعلينا أن نقدم له الحمد والشكر على نعمائه ، وأن ننفذ إرادته بالمعاملة الطيبة لكل الناس ، خاصة أولئك الذين يلجأون إلينا طالبين حمايتنا .

** كن عادلا سوياً مع الفقراء والأغنياء ، ولا تترك للظلم سبيلا إلى دولتك ، فالظلم طريق الضياع ، وكن فى ذات الوقت رحيما عطوفاً على من يعتمد عليك ، فكلهم خلق الله .

** انزل العقاب بالوزراء والحكام ممن يميلون مع الهوى ولا يعدلون فى شعبك ، وكن معهم حازماً قوياً .

** كن رقيقاً حازماً مع قواتك وجيوشك حينما تعوزك الضرورة إلى وضع السلاح فى أيديهم ، واجعلهم حماة الدولة لا مخربيها ، وادفع إليهم رواتبهم واجعلهم واثقين دائماً من وفائك بوعدك .

** لا تتوان عن كسب إرادة شعبك ، ففى تعاطفهم يكمن أمان الدولة ، وفى خوفهم يكمن الخطر ، وفى كرههم يكمن الانهيار المحقق .

** كن عطوفاً على الفلاحين الذين يعملون ليوفروا لنا القوت الضرورى ، ولا تسمح بتخريب زروعهم .

ويختتم الأمير هشام نصائحه لابنه الحكم بقوله : « وعلى الجملة فاحكم بطريقة تجعل ألسنة شعبك تلهج بشكرك وهم يعيشون سعداء فى ظل حمايتك وعطفك ، يجنون مباهج الحياة فى ثقة وهدوء . ففى كل هذا يكون الحكم الصالح ، فإذا استطعت تحقيق ذلك كنت سعيداً وجنيت الشهرة كأعظم أمير فى العالم » .

هكذا كانت عظمة الأمير هشام الرضا فى علمه ودأبه ، وفى حسن خلقه وجميل صفاته وبعد نظره وفلسفة حكمه .

(٣)

تديّنه

ورعه وتقواه - إيثاره لمجالس الحديث والفقه - اهتمامه بجمع الزكاة وتنظيم صرفها - بساطته وزهده - اهتمامه بالمذهب المالكي .

كان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه . وكان ينفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى المسلمين حتى لم يبق في عهده منهم في قبضة العدو أحد وكان يرتب في ديوانه أرزاقاً لأسر الجند المتوفين في الجهاد . وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولا سيما الفقه على غيرها ، ومن أمثلة تدينه تبرعه بنصيبه من الغنيمة بعد فتح تربونة لعمارة المسجد الجامع بقرطبة ، ذلك المسجد الذي أولاه هشام عناية كبيرة كما أنه اهتم ببناء عدة مساجد أخرى . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان يذهب بسيرته سيرة عمر بن عبد العزيز في تدينه وعدله وكان يقضي في المظالم بنفسه ، وفي هذا يقول المقرى(١) إنه كان هناك أمام القصر على الرصيف المشرف على النهر الأعظم بقرطبة مسجدان مشهوران بالفضل كان الأمير هشام الرضا يستعمل الحكم في المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل . ومن تدينه أيضاً اهتمامه بجمع الزكاة على الكتاب والسنة وصرفها لمستحقيها . وعلى الجملة فقد كان هشام فاضلا عادلا حسن الخلق شديد التدين وقد أجمعت المصادر المختلفة على ذلك ، ولا يقلل من هذه الصفات بعض الآراء التي ظهرت حديثاً (٢) والتي تحاول التشكك في تدين

(١) نفح الطيب ح ٢ ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) أنظر : حسين مؤنس : شيوخ العصر في الاندلس المكتبة الثقافية تحت رقم ١٤٦ صادر في ١ ديسمبر ١٩٦٥ .

هـذا الأمـير وفى أخلاقه وشخصيته بصفة عامة وإن كانت لاتستطيع صراحة إنكار تلك الصفات . ونحن هنا نحاول نفى هذه الآراء عن هشام بعد أن تعرضنا لدراسة شخصيته دراسة دقيقة وافية وتبينا جوانب هذه الشخصية فى كل دقائقها وعلقنا وأثبتنا كل شىء فى موضعه :

ففى أول صفحة ٨ من الكتاب المذكور يقول المؤلف فى معرض حديثه عن الأمير هشام :

« وكان متديناً ميالا إلى العلم والاستماع بطبعه فاجتذب الفقهاء إليه وأحبوه » . ثم يعود فيقول فى آخر الصفحة : « كان رجلا متديناً شديد التقى ولكن تقاه لم يصرفه عن الحرص على الدنيا والتدبير لمصالحه فيها ، فقد كان وهو أمير ينفق الساعات فى شرفة القصر يرقب الداخلين فيه والواردين إليه ، وكان مسارعاً أبداً إلى كشف عورات أخيه . ولو كان هشام تقياً خالص التقى كما تصوره المراجع لسلم بأن أخاه الأكبر أحق بالعرش » .

فكما نرى هنا أن المؤلف يعترف صراحة فى العبارة الأولى بأن الأمير هشام كان متديناً وكان ميالا إلى العلم ، وكذلك فى العبارة الثانية حين يؤكد أنه كان شديد التدين ، شديد التقى . إلا أنه فى نهاية العبارة يحاول التشكك فى هذا الأمر حين يذكر أنه

لو كان فعلا تقياً خالص التقى لسلم بأحقية أخيه فى وراثة العرش. ونحن لا نرى الرابط أو التعارض بين تقواه وبين موضوع وراثة العرش فقد أوضحنا تفاصيل هذا الموضوع من قبل ورأينا كيف أن عبد الرحمن الداخل كان يؤثر ابنه هشاماً على أخيه سليمان لفضائل هشام التى تكلمنا عنها فى أكثر من موضع ، وقد أعلنه صراحة ولياً لعهده وأعده ليقوم بهذا الأمر من بعده ، فكان عبد الرحمن يعمل لصالح أمته ، وكان يرى أن صالحها من بعده هو فى تولية ابنه هشام الذى اجتمعت له صفات الحاكم الصالح العادل ، وإن كان عبد الرحمن قد ترك وصية غامضة بعض الشىء ، فيها تردد فى الاختيار الصريح لأحد الأخوين ، إلا أن النفوس والرأى العام فى الدولة كان مهيأ نفسياً لتولى هشام الحكم ، وهذا هو ما تم بالفعل . وعلى العكس فإن سكوت الناس ورضاهم لأكبر دليل على أنه كانت له أخلاق وفضائل أحبه الناس من أجلها ، فضائل يجب توافرها فى الحاكم الصالح ، وإلا لانصرف الناس عنه إلى أخيه . هذا يؤكد تدين هشام وحسن علمه وخلقه من ناحية . ومن ناحية أخرى نحن لا نرى أى تعارض فى الجمع بين مصالح الإنسان فى الدنيا وبين حرصه على أمور دينه ، ونحن نرى أن هشاماً قد تفهم الدين على حقيقته فلم يصرفه تقاه وصلاحه عن الحرص على تدبير مصالحه فى هذه الحياة الدنيا عملا بالآية الكريمة : « ولا تنس

نصيبك من الدنيا ، والحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وهذا لا يمنع مطلقاً من أن يكون هشام رجل دين وسياسة في ذات الوقت ، بل هذا هو المطلوب من حاكم أجمعت المصادر على تدينه وتقاه وجمال خلقه وحسن سيرته .

وفى أكثر من موضع بعد ذلك يحاول المؤلف صراحة أن ينفى عن هشام صفة التقى فيقول فى صفحة ١١ : « كان هشام ذا اهتمام شديد بنفسه وصالحه رغم مظاهر الورع والتقى الذى غلب عليه ، ولو كان من التقى بحيث تصوره المراجع لما أقدم وهو أمير على قطع لسان الشاعر أبى المخشى عقاباً له على التعريض به فى قصيدة نظمها فى مدح أخيه سليمان بن عبد الرحمن » . ويقول أيضاً فى صفحة ١٩ : « استطاع هشام أن يضفى على نفسه صورة الأمير الورع التقى الذى يسلك فى حياته سيرة النساك » .

والواقع أن هشاماً كان ورعاً تقياً بالفعل ويكفى ما قدمنا من أدلة وبراهين على ذلك كل فى حينه ، ويكفى أن نشير إلى إجماع المصادر المختلفة على ذلك . وأما قصة قطع لسان الشاعر أبو المخشى فلم يوردها إلا ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة ، وواضح فيها ولا شك المبالغة . ثم إنها قصة غير مقبولة فى بعض جوانبها ،

إذ كيف ينبت اللسان بعد قطعه كما علق على ذلك البعض ؟ ثم إنه ليس من الثابت أن من قام بهذا هو الأمير هشام نفسه إذ أن القصة لا تشير صراحة إلى ذلك كما سبق أن أوردناها هنا ، بل هى على العكس تشير إلى أن من فعل ذلك « شخص تعصب لهشام » ، وقد حققنا هذا الأمر فى موضعه عند ذكرنا لهذه الحادثة فى الجزء الثانى من الفصل الأول ، كما ذكرنا فى حديثنا عن أخلاق هشام ، فى الجزء الأول من هذا الفصل — الثالث — كيف أنه آلمه ماوقع لأبى المخشى بسببه فاستدعاه ، بعد أن تولى الإمارة ، وأعطاه الدية مضاعفة(٣) .

ولا شك بعد هذا أن ما ورد فى كتاب « شيوخ العصر فى الأندلس » كلها أدلة وبراهين واهية تحاول التشكيك فى صفات الأمير هشام التى أجمع عليها كل من تناول سيرة هذا الأمير الجليل. هـذا وبينما المؤلف يحاول التشكيك فى أخلاق هشام ، نراه هو نفسه يعترف بحسن أخلاقه فى أكثر من موضع فى كتابه ، ويكفينا أن ننقل عنه هذه العبارة التى تدل على عدل هشام وحسن خلقه . يقول فى صفحة ١٨ : « وعندما رفض المصعب بن عمران أن يتولى القضاء لهشام اعتذر هذا له عن أخلاق أبيه التى منعت

(٣) أنظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ، ٣٦ وفى ذكره الحادثة يؤكد أن من فعل هذا شخص متعصب لهشام وليس هشاماً نفسه .

مصعباً من أن يتولى له القضاء وقال له إنه على غير أخلاق أبيه ، ثم اشترط على نفسه شرطاً قاسياً ، قال له : ... ونفسي طيبة عليك اصلاح أمور المسلمين ، ولو وضعت المنشار على رأسى لم أعترضك » .

هذا هو هشام الرضا ، الرجل الطيب السمح الخلق رغم أنه اضطر إلى حمل السلاح ضد أخويه ، وضد الدويلات المسيحية المجاورة ، وضد كل من سولت له نفسه الخروج عليه أو الإضرار بصالح أمته الإسلامية ، ومع ذلك فقد كان هشام فى قرارة نفسه رجل سلام لاداعية حرب . وقد أسبغ عليه المؤرخون من المسيحيين قبل المسلمين من جميل الصفات ماملأ من كتبهم وبحوثهم صفحات وصفحات (٤) . وننقل هنا عن العلامة الهولندى الكبير رينهارت دوزى قوله : «كان هشام ، تعلوه مظاهر البساطة، يتنقل فى شوارع المدينة ، مختلطاً بعامة الشعب يعود المرضى ، ويزور الفقراء فى أكواخهم ليقف بنفسه على حاجاتهم . وكثيراً ما كان يخرج من قصره فى منتصف الليل والمطر ينهمر مدراراً ، يحمل الطعام والكساء ليمنحه لبعض ذوى الحاجة من المرضى والمحتاجين. عادلا فى سيرته ، وشديد التدين ، وبهذا كان يقدم المثل لكى يتبعه فى ذلك الآخرون » .

---

(٤) أنظر دوزى :

Historia de los Musulmanes de España, p. 358.

وكوندى ص ١١٤ وبلبيه جـ ١ ص ٤٠٩ .

وفى عهد هشام كان قد بدأ ينتشر فى المشرق المذهب الدينى الجديد الذى وضعه الإمام مالك بن أنس ، وقد سارع هشام بسبب حبه الشديد للدين إلى دراسة هذا المذهب والتحمس له والدعوة إلى دراسته والتعمق فيه ، وأقبل الأندلسيون على ذلك إقبالا شديداً أدى فى النهاية إلى أن أعلن هشام هذا المذهب مذهباً رسمياً لدولته كما سيتضح تفصيلا فى الفصل التالى .

(٤)

أهم آثاره

المسجد الجامع بقرطبة — بناء عدة مساجد أخرى — قنطرة قرطبة الشهيرة — عين فرقد — مدينة قرطبة على عهد هشام — اهتمام هشام بالقضاء — هشام والعملة — الاهتمام باللغة العربية — انتشار الأمن والاستقرار والرخاء .

بالرغم من مشاغل هشام وحروبه الكثيرة التى استمرت طيلة مدة حكمه كما رأينا ، إلا أنه وجه نظره إلى القيام بكل مايعود بالخير والنفع على دولته .

فمن ذلك اهتمامه بالمسجد الجامع بقرطبة ، والذى كان قد أسسه والده وتوفى قبل إتمامه ، ذلك المسجد الذى أسهب فى وصفه المؤرخون الذين أجمعوا على أنه بز مساجد المغرب والمشرق فى عهده . والمسجد يمثل مساحة تصل فى طولها إلى ٦٠٠ قدم وفى عرضها إلى ٢٥٠ قدم ، ويتألف من ٣٨ قوساً فى عرضه ، ١٩ قوساً فى طوله ، وتقوم هذه الأقواس مستندة إلى مجموعة من الأعمدة الرخامية الفخمة وعددها ١٠٩٣ عموداً . وللمسجد ١٩ باباً مغطاة بالبرونز المنقوش والمتقن الصناعة ، ويقع الباب الرئيسى فى الوسط تحليه قطع الذهب ، ويليه تسعة أبواب عن كل جانب . وأما القباب بزخارفها ونقوشها فتعتبر آية من الفن وحسن الذوق . ويضىء المسجد ٤٧٠٠ مصباح تستهلك ٢٤٠٠٠ رطلا من الزيت فى العام الواحد ، كما كان يستهلك ١٢٠ رطلا من الطيب والعنبر لإشاعة الرائحة الذكية فيه . وأما مشكاة المحراب وهى أكبر مصابيح المسجد فقد كانت من الذهب الخالص تحليها النقوش وحلو الزخارف . وإلى الآن لايزال المسجد باق أثراً يشهد على ماوصل إليه الفن العربى الإسلامى فى ذلك الوقت من

المهارة والحذق وحسن الذوق .

والحقيقة أن عبد الرحمن الداخل بدأ فى إنشاء هذا المسجد فى أواخر أيامه سنة ١٧٠ هـ وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد واعتنى به عناية فائقة ، ولكنه توفى قبل إتمام فأتمه ولده هشام وزاد فيه من بعده ملوك بنى أمية حتى غدا أعظم مساجد الأندلس وهذا ما يؤكده المؤرخون من العرب وغيرهم[١] حين يتكلمون عن مسجد قرطبة فيذكرون أنه كان بمدينة قرطبة كنيسة قديمة تدعى كنيسة القديس فيسنت (سان فيثينتى San Vicente وأن العرب حينما دخلوا قرطبة فى فتوحهم للبلاد اقتسموا هذه الكنيسة مع المسيحيين فتركوا لهم النصف ، وأخذوا النصف الثانى ليقيموا به مسجداً يصلون فيه . وفى عهد عبد الرحمن الداخل ، وبعد أن استتب له الأمر واستقر بقرطبة متخذاً منها عاصمة للملك الجديد ، رأى أن يقيم بها مسجداً جامعاً للمسلمين خليق بعاصمة الملك ، فاشترى النصف الثانى لهذه الكنيسة المذكورة من المسيحيين ، وهدم البناء كله ليقيم على هذه المساحة من الأرض مسجداً

---

(١) أنظر : كوندى ص ١١٣ ، ليفى بروفنسيال ج ٥ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، وأيضا : نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣ .

جديداً . ولم يمتد الزمن بعبد الرحمن الداخل ليتم بناء المسجد ، فاضطلع خليفته الأمير هشام بهذه المهمة ، كما أضاف إلى التخطيط الذى وضعه والده للمسجد أشياء لم تكن موجودة إذ بنى سقيفة خاصة لصلاة النساء شمالى المحراب ، كما أقام الميضأة فى شرق المسجد ، وأقام المئذنة أيضاً .

وكما يقول المقرى أن « مسجد قرطبة شهرته تغنى عن كثرة الكلام فيه ، ولكن نذكر ما قاله بعض المؤرخين من أنه ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة » .

ولم يكن هذا هو المسجد الوحيد الذى اهتم به الأمير هشام ، إذ نجده عقب الانتهاء من عمارة هذا المسجد العظيم يأمر ببناء عدد من المساجد الأخرى فى العديد من مدن الأندلس . ولا ننسى أن الأمير هشام شخصاً ورعاً تقياً متديناً ، ولذا فقد أولى الناحية الدينية عناية خاصة .

والواقع أن الأمير هشام سار على نهج والده متمما لسياسته ، واهتم مثله إهتماماً كبيراً بالجيش وبالناحية الحربية بصفة عامة ، وأضاف إلى ذلك إهتمامه هو شخصياً بالناحية الدينية ، التى أولاها عناية خاصة بسبب تدينه الشديد ، وسيتضح هذا حينما نتكلم عن المذهب الدينى الجديد الذى دخل الأندلس على عهد هشام

وصار المذهب الرسمى للدولة ، ألا وهو المذهب المالـكى .

وعلى أى حال فلم تـكن أعمال هشام قاصرة على العمارة الدينية وحسب بل إنه اعتنى عناية فائقة بالعمارة المدنية أيضاً ، ومن ذلك اعتنائه بقنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادى الـكبير ، تلك القنطرة التى كان الوالى العربى السمح بن مالك الخولانى قد بناها بأمر من خليفة دمشق عمر بن عبد العزيز على بقايا قنطرة رومانية قديمة كانت قد تهدمت وخاصة من ناحيتها الغربية ، فأقامها السمح من جديد وبناها من الطوب الأحمر وذلك حوالى عام ١٠١ هـ — ٧٢٠ م ، وهذه القنطرة لم تلبث أن تهدمت مرة أخرى عام ١٦٢ هـ — ٧٧٩ م وبقيت على حالها هذا حتى عهد الأمير هشام الذى اهتم بها وأعاد بناءها تحت إشرافه الشخصى وبصورة تتفق وفخامة ملـكه . ويورد المؤرخون العرب عدة أوصاف لهذه القنطرة ، فيقول عنها المقرى(٢) . والقنطرة التى على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبعة عشر قوساً » . ويقول نقلا عن ابن حيان فى مناهج الفـكر :

« إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا ، وطولها ثمانمائة ذراع ، وعرضها عشرون باعاً وارتفاعها ستون ذراعاً ، وعدد

---

(٢) نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٦ .

حناياها ثمان عشرة حنية ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً » .
وحكى ابن وضاح أن هشاماً سأل يوماً أحد وزرائه : ما يقول أهل قرطبة عن القنطرة ؟ فقال الوزير : يقولون : ما بناها الأمير إلا ليمضى عليها إلى صيده وقنصه ونزهته ، فحلف هشام ألا يجوز عليها إلا لغزو فى سبيل الله أو مصلحة فلم يمر عليها بعد ، ووفى بما حلف عليه(٣) .

كذلك أمر الأمير هشام فى مجال اهتمامه بعاصمته وبحسن تزيينها ببناء نافورة فخمة للماء بأحد الميادين العامة بقرطبة ، فأتت آية من آيات الفن الجميل ، وهى النافورة المعروفة « بعين فرقد » نسبة إلى واضع تصميمها وبانيها فرقد بن عون العدوانى وهو من أهل قرطبة ، فكانت هذه النافورة عملا من أعمال هشام الجليلة .

كذلك زين مدينة قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة فبلغت العاصمة فى عهده شأواً بعيداً . ودعنا نطلع على بعض وصف عبد الواحد المراكشى لها إذ يقول : « إنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية ، بالأندلس وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام السكان مبلغاً لم تبلغه بلدة » .

---

(٣) أنظر : أعمال الأعلام ص ١٢ ، البيان المغرب ص ٦٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٧ .

ويقول نقلا عن ابن فياض فى تاريخه أخبار قرطبة أنه «كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون إمرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى، هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ؟ وقيل إنه كان فيها ثلاثة آلاف مقلس، وكان لا يتقلس عندهم فى ذلك الزمان إلا من صلح للفتيا. وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها أن الماشى كان يستضىء بسروج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء»(٤).

وفى عهد الأمير هشام ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية والحروب. وكان هشام من أهل الخير والصلاح كثير الغزو والجهاد، ومن محاسنه أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة، وكان اهتمامه بالقضاء عظيما حتى قبل أن يتولى الإمارة وذلك لشدة حبه للعدل. ويحكى لنا ابن القوطية(٥) فى هذا الصدد أنه «لما توفى التُّجيبى يحيى بن زيد القاضى بقرطبة أيام عبد الرحمن الداخل، شاور عبد الرحمن وحضر شوراه ابناه سليمان وهشام فيمن يولى القضاء

---

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٢ . يتقلس أى يتعمم أو يلبس العمامة (القلنسوة) .

(٥) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٣ ، ٤٤ .

مكانه ، فقال له سليمان وهشام(٦): عرفنا بجانب المدور الأدنى إلى قرطبة شيخاً من العرب الشاميين له فضل وصلاح وخير كثير يسمى مصعب بن عمران الهمداني فصدقهما الوزراء فبعث فى الشيخ أوصله عبد الرحمن إلى نفسه وأعلمه بما بعث فيه له فلم يجبه ، وكان عبد الرحمن لا يحتمل أن يخالف فغضب غضباً شديداً حتى جعل يفتل ما أسبل من شاربه وكانت إشارة غضبه . ووافق ذلك إقبال معاوية بن صالح من الوجهة التي كان وجهه لها فولاه القضاء فكان قاضياً إلى أيام هشام . ثم توفى فبعث هشام فى مصعب بن عمران فأدخله على نفسه وقال له : تسمع مني ما أقوله لك بالله الذى لا إله إلا هو لتجيبني إلى ما أدعوك إليه أو لأسطون بك سطوة تمحو عني إسم العدل والرفق ما بقيت ... الخ . الأخلاق التي كنت تكرهها من أبي قد أمكنها الله مني ونفسي طيبة عليك اصلاح أمور المسلمين ولو وضعت الميشار [هكذا وردت بالنص وصحتها المنشار] على رأسي لم أعترضك . فولى القضاء . ووافق ذلك قدوم محمد بن بشير المعافرى الباجي من الحج فاستكتبه مصعب بن عمران فكان كاتبه إلى أن توفى مصعب وولى محمد بن بشير القضاء بعده فى أيام حكم بن هشام » .

---

(٦) المُدَوَّرُ : حصن معروف بهذا الإسم (بالإسبانية Almodovar) وكان يوجد خارج مدينة قرطبة .

وبالنسبة للمعاملات ولصك العملة بالذات فإن الأمير هشام لم يجر أى تغيير على النظام الذى كان سائداً أيام والده بالنسبة لهذا الأمر فكانت العملة تضرب على نفس النسق وبنفس الطريقة وعليها نفس النقوش التى كانت منذ عهد والده عبد الرحمن .

وفى عصر هشام اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد ببعد نظرها إذ جعلت اللغة العربية لغة التدريس فى معاهد النصارى واليهود ، وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفى خلق روح التفاهم والوئام بينها ولا سيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله وقربت مسافة الخلف بينهم وبين المسلمين ، ولم يكن ذلك بعيداً فى الواقع عن غاية السياسة الأموية .

وعلى الجملة فقد كان عهد هشام عهداً زاهراً وافر الأمن والرخاء .

الفصل الرابع

هشام والمذهب المالكى

(١)

دخول المذهب المالكى إسبانيا

انتقال المذهب المالكى إلى إسبانيا فى عهد الأمير هشام الأول - كيفية انتقال المذاهب بصفة عامة - أول من نقل موطأ مالك للأندلس - المذاهب المتقدمة على مذهب مالك - حب هشام للمذهب المالكى - وجود مذهب الأوزاعى بالأندلس قبل مذهب مالك - صعصعة بن سلام الشامى - علاقة الأندلس بسوريا منذ عهد عبد الرحمن الداخل - بعض قضاة عبد الرحمن الداخل - المذهب المالكى فى عهد كل من هشام وابنه الحكم - الفرق بين نفوذ رجال الدين أيام الأمير هشام ونفوذهم أيام والده عبد الرحمن الداخل - نشأة المذهب المالكى والفرق بينه وبين المذاهب الأخرى - إقبال الفقهاء الأندلسيون على المذهب المالكى والدعوة له بالأندلس - الدارسون الإسبان يدرسون مبادىء الليث بن سعد مع مبادىء مالك - وجود الدراسات الفقهية خاصة الحديث بإسبانيا منذ أيام موسى بن نصير - الإمام مالك ومؤلفه الشهير « الموطأ » - المذهب المالكى بعد موت الأمير هشام - يحيى بن يحيى الليثى - ظهور المذهب المالكى بصورة مستقلة - ذكر بعض أتباع الإمام مالك الذين كان لهم فضل نقل ونشر مذهبه بإسبانيا .

إن العمل الرئيسى الذى يمتاز به عهد الأمير هشام الرضا هو انتقال المذهب المالكى إلى الأندلس فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، فقد اهتم هذا الأمير اهتماماً خاصاً بهذا المذهب الذى كان قد ظهر فى المشرق وأخذ الكثيرون فى اعتناقه والتحمس له ، وقد قام هشام بالدعاية اللازمة لهذا المذهب وأخذ يمنح المناصب القضائية والدينية عامة لأولئك الذين يعتنقونه . وبطبيعة الحال لم يكن ظهور الأتباع الأول لمالك بن أنس فى إسبانيا هكذا لجأة ، بل يرجع ذلك كما يشير المؤرخون إلى عهد بعيد قبل عصر الأمير هشام . ففى المدن الأندلسية المختلفة كانت الدراسات الفقهية والمذاهب المتعددة تجتذب إليها الأتباع الذين هم فى الواقع المسئولون الحقيقيون عن بقاء وانتشار هذه المذاهب ، فقد كانوا يقومون بدراستها أولا ثم بمقارنتها بالمذاهب الأخرى مع شرحها وتحليلها ، وهكذا كتب لها البقاء فدونوها معتمدين على مقارنتها بعلم الحديث ، ثم أخذوا يعملون على نشرها داخل المجتمع وداخل الإطار العام للرأى الذى يعتنقونه .

ويقول إيزيدرو فى مؤلفه « المستعربين Des Mozárabes »(١) نقلا عن ابن القوطية أنه فى زمن عبد الرحمن بن معاوية ـ يقصد الداخل ـ أدخل الغازى بن قيس موطأ مالك بن أنس إلى

---

(١) أنظر : إيزيدرو ـ ١ ص ١١٠ ، ١١١ .

الأندلس ، وهو من أقدم المؤلفات الفقهية الأساسية ذات الأثر العظيم بالنسبة للدين الإسلامى ، ويشتمل على المبادىء الأساسية للسنة فى المدينة المنورة مقارنة بمثيلاتها الإسلامية الحقة .

وصاحب هذا المذهب هو أبو عبد الله مالك بن أنس ، ولد كما يقولون فى نفس السنة التى دخل فيها العرب إسبانيا ، وكان على قدر عظيم من العلم والحكمة فأحاط به عدد كبير من الأتباع والدارسين الذين أصبحوا فيما بعدهم عماد نقل مذهبه ونشره . ولم يكن على وفاق مع الخلفاء العباسيين بل كان على العكس يميل إلى الأمويين الأندلسيين الذين أقبلوا على مذهبه فى حماس وإخلاص .

ودخول مذهب مالك إلى إسبانيا بدأ فى حياة الإمام مالك نفسه . وقبل ذلك بوقت قصير كان بعض معاصرى مالك قد قاموا بمحاولاتهم الأولى فى الميدان الدينى من أمثال أبو حنيفة ، والثورى فى العراق ، والأوزاعى فى سوريا . وفى هذا الوقت بالذات — كما يقول دوزى(٢) — ظهر فى المشرق مذهب دينى جديد يتزعمه الفقيه المدنى العظيم مالك بن أنس مؤسس أحد المذاهب الإسلامية الأربعة . وكان الأمير هشام الرضا يكن إجلالا وتقديراً عظيماً لهذا الإمام

(٢) دوزى ح ١ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

الذى كان بدوره يكن الإعجاب بالأمير الأموى الأندلسى ، ويكره العباسيين الذين اتهموه فى وقت من الأوقات بحماية أحد العلويين من يطمعون فى الخلافة وقاموا بجلده ، وهكذا فحينما قص عليه تلامذته من الإسبان الشىء الكثير عن أخلاق وطيبة وحسن شمائل الأمير هشام لم يملك الإمام مالك إلا أن يظهر إعجابه وحماسه لهذا الأمير ، ورأى فيه المثل الأعلى لأمير مسلم ، وكان فى ناظريه هو الوحيد الذى يستأهل الجلوس على عرش الخلافة .

وقد نقل هؤلاء الدارسون من الإسبان هذا الإعجاب الشديد إلى أميرهم حينما عادوا إلى بلادهم ، وقام الأمير هشام بدوره مدفوعاً بحبه لمذهب مالك ، بالدعاية لهذا المذهب فى كافة أنحاء الأندلس بكل ما وسعه من عزم وقوة ، وقام بتشجيع كل من يرغب فى دراسة هذا المذهب بمنحه كافة التسهيلات للسفر إلى المدينة المنورة ولقاء الإمام مالك والدراسة على يديه ، كما أخذ يتخير من بين تلامذة مالك من يمنحهم وظائف القضاء والوظائف الدينية عامة .

وتحدثنا المصادر المختلفة عن وجود مذهب دينى آخر فى إسبانيا قبل دخول مذهب مالك إليها ، ألا وهو مذهب الأوزاعى ، الذى كانت تقوم عليه كل الدراسات الفقهية وكذا المعاملات والتشريعات المختلفة التى تركزت بصفة خاصة فى العاصمة قرطبة حيث كان يعيش صعصعة بن سلام الشامى أحد أتباع الأوزاعى

فى المشرق ، والذى ظل بقرطبة يقوم بتدريس ونشر مذهب الأوزاعى حتى توفى أيام الأمير هشام فى عام ١٨٠ هـ ، رغم أن البعض يذكر أنه عاش اثنتى عشرة سنة بعد هذا التاريخ(٣) .

وصعصعة الذى يعتبر أول أتباع الإمام الأوزاعى هو عبد الله صعصعة بن سلام الشامى ابن دمشق ، الذى شغل منصب المفتى ، وصاحب الصلاة فى قرطبة ، والذى أمر بزراعة الأشجار فى صحن المسجد الجامع بالعاصمة الأندلسية قرطبة ، وفد على إسبانيا حوالى منتصف عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، وقبل وفاة الإمام الأوزاعى بوقت قصير وكانت شهرة الأوزاعى قد انتشرت بصورة كافية وقام صعصعة بالدراسة على يديه فى بلدته دمشق وسمع منه ومن بعض تلامذته أيضاً ثم انتقل إلى مصر وقام بتدريس هذا المذهب بها حيث كون له أتباعا .

وبعد ذلك انتقل إلى الأندلس واستقر فى مدينة قرطبة فكان أول من أدخل مذهب الأوزاعى إلى الأندلس .

ويبدو أن مذهب الأوزاعى هذا لم يستطع المقاومة والوقوف طويلا فى وجه المذهب الجديد الذى أخذ يهدده ، ولا ننسى من

---

(٣) أنظر : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس حـ ١ ص ١٦٩ ، ١٧٠ تحت رقم ٦٠٨ ؛ الضبى : بغية الملتمس ص ٣١١ تحت رقم ٨٥٣ .

ناحية أخرى أن الروح الدينية الفقهية لأبناء وأحفاد التابعين والأنصار من المدنيين الذين استقروا فى الأندلس قد انتقلت معهم إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وهكذا فإنه من الطبيعى والمنطق ، وهو ما وقع فعلا ، أن يسير هؤلاء على اتباع التقاليد والعادات المدنية وأن يتحمسوا لدراسة الحديث ويغلبونها على ما عداها بأرض الأندلس ، وبمعنى آخر فإنهم أقبلوا على موطأ مالك وعلى مذهبه فاعتنقوه فى سهولة ويسر وغلبوه على المذهب الشامى الذى كانوا ينظرون إليه ربما بنوع من العداء السياسى . وقد بدأ هذا على أية حال فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، ولكنه ظهر بصورة قوية أيام حكم ابنه الأمير هشام الذى كان بطبيعته فاضلا متديناً محباً لدراسة الحديث والفقه فقام يعمل بكل ما وسعه لنشر المذهب المالكى الذى أخذ يحل بالتدريج محل مذهب الأوزاعى .

وقد كان طبيعياً فى بداية الأمر وخاصة أيام الأمير عبد الرحمن الداخل أن يكون الاتجاه ناحية الشام لا ناحية العراق بسبب كره الأمويين للعباسيين ، وكانت دمشق رغم انتقال عاصمة الخلافة منها إلى بغداد ، لاتزال مركزاً ثقافياً وحضارياً على جانب كبير من الأهمية ، ولم ينقطع الاتصال بها على الأقل عن طريق مرور الحجاج عليها فى ذهابهم وإيابهم فكان يتم بها لقاء المشاهير من المشايخ والسماع عليهم والنقل عنهم . والأمير عبد الرحمن الداخل نفسه كان يتخير رجال دولته بالأندلس

من بين السوريين ويعهد إليهم بأمورها خاصة الوظائف الدينية بل إنه كان يرسل من بينهم البعثات إلى دمشق للتزود بالعلم والمعرفة ، فهذا معاوية بن صالح يرسله الأمير عبد الرحمن إلى دمشق دارساً ثم يعينه بعد عودته قاضياً لقرطبة ، ونفس المنصب يتولاه فى وقت آخر شخصية سورية أخرى هو المصعب بن عمران. هذا عدا القاضى السورى المعروف الذى تولى القضاء لعبدالرحمن فى بداية حكمه بالأندلس ألا وهو يحيى بن يزيد التجيبى .

أما معاوية بن صالح فقد كانت ثقة الأمير فيه لاحد وقد عهد إليه الأمير بإحضار أختيه من سوريا ، وكان يتولى القضاء لمدة عام واحد بالتناوب مع عمر بن شرحبيل(٤) .

ومن بين أتباع معاوية من رجال دولة عبد الرحمن الهامين نجد شَبَطُون الذى تزوج من ابنة معاوية والذى قام بالحج معه فى حجته الثانية التى فيها تقابل مع مالك بن أنس(٥) .

وأما القاضى مصعب بن عمران الهمدانى فقد كان من أتباع

---

(٤) أنظر : الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ص ٤٠ — ٤٢ ؛ ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس حـ ١ ص ٢٦٢ تحت رقم ٩٣٤ ؛ الضبى بغية الملتمس ص ٤١٥ تحت رقم ١٢٣٨ .

(٥) نفح الطيب حـ٢ ص ٢٥١ — ٢٥٣ ؛ ابن الفرضى حـ١ ص ١٣١ — ١٣٣ تحت رقم ٤٥٦ ؛ الضبى ص ٢٨٠ تحت رقم ٢٥١ ؛ الخشنى كتاب القضاة بقرطبة ص ٩ ، ١٠ ، ٣٦ ، وأيضاً كتاب قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٤ .

الأوزاعي ثم مالك ، درس المذهبين دون التقيد بأحدهما إذ كان يعتمد في قضائه على معرفته وفهمه الخاص فكان يأخذ بمبدأ الاجتهاد في أحكامه . وقد تولى القضاء للأمير هشام الرضا وظل في منصبه حتى توفي في أوائل عهد الحكم الأول ابن هشام(٦) .

كما رأينا إذن ، لا شك أن اتجاه الأمير عبد الرحمن الداخل إلى دمشق كان مقدمة لقبول وانتشار مذهب ، الأوزاعي بالأندلس ، ولكن الحال سيتغير عقب تولية الأمير هشام الذي يتحمس للمذهب المالكي كما أشرنا من قبل.وتجمع المراجع المختلفة على أن هشاماً هو الذي أدخل هذا المذهب وتبناه بالأندلس وأن خليفته ، ابنه الحكم الأول ، سار في ذلك على نهجه فازدهر المذهب المالكي الذي صار منذ عهد هشام هو المذهب الديني الرسمي لأسبانيا الإسلامية ، وأصبح قضاة قرطبة بل وغيرها من المدن والأقاليم ، وكذا المناصب الدينية وغيرها تمنح للمالكيين بكافة أنحاء الأندلس ، وعلى هذا فقد كان نفوذ هؤلاء آخذاً في الازدياد على مر الأيام . بطبيعة الحال لم يكن نفوذ رجال الدين

---

(٦) أنظر : ابن الفرضي حـ٢ ص ١٠٠٩ تحت رقم ١٤٣٠ ، المغرب في حلى المغرب حـ١ ص ١٤٤ الخشني : كتاب القضاة بقرطبة ص ٨ ، ٩ ، ص ٤٥ — ٥١ ، وأيضاً : قضاة قرطبة وعلماء أفريقية ص١٣ ، النباهي : المراقبة العليا ص ٤٥ — ٤٧ ، دوزى حـ ١ ص ٣١٤ .

عامة من الفقهاء والقضاة و . . . الخ ليظهر جلياً فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ذو الشخصية الطاغية ، ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن دائماً غيوراً على أمور دينيه وكان يستشير هؤلاء فقهاء فى الكثير من أموره ، ولكنه لم يكن ليسمح لهم بالتدخل فى شئون دولته السياسية . ولكن الأمور تغيرت فى عهد هشام الذى كان بطبيعته يميل إلى الفقهاء ورجال الدين ويؤثر مجالستهم خاصة أولئك الذين يذهبون للحج وزيارة الأماكن الإسلامية المقدسة . وكان هشام يشجع هذه الزيارات ويجلس ليستمع إلى ما يحمله هؤلاء العائدون إلى إسبانيا من أخبار وحكايات عن انتشار الدراسات والمذاهب الإسلامية بالمشرق .

ونود أن نوضح هنا أن الأندلس فى الفترة الأولى من حياتها تأثرت بالحضارة السورية فى جميع مظاهرها فكان من الطبيعى أن تعتنق مذهب الأوزاعى بحكم كونه شامى موال للأمويين كما كان من الطبيعى أيضاً أن ترفض مذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للعباسيين .

يضاف إلى ذلك أن مذهب الأوزاعى كان يهتم بصفة خاصة بالتشريعات العسكرية وأحكام الحرب وهذا يناسب وضع الأندلسيين فى هذه الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب

الحرب والقتال . ويروى ابن الفرضى فى كتابه « تاريخ علماء الأندلس » أن أول من نقل مذهب الأوزاعى هو قاضى غرناطة أسعد بن عبد الرحمن السبق (توفى سنة ١٥٠ هـ) ، بينما يروى ابن حزم أن أول من أدخل مذهب الأوزاعى إلى الأندلس هو صعصعة بن سلام الشامى (توفى سنة ١٩٢ هـ) . وعلى أية حال فإن مذهب الأوزاعى انتشر فى الأندلس فى الفترة الأولى حتى أوائل أيام الأمير هشام الرضا الذى منذ وقته أخذت الأمور فى الاستقرار وأخذ الأندلسيون يتطلعون إلى مذهب فقهى آخر يتناسب ووضعهم الجديد ، فكان ذلك تمهيداً لدخول المذهب المالكى إلى الأندلس .

فى ذلك الوقت كان الإمام الشهير مالك بن أنس يقوم بإلقاء دروسه على مجموعة من تلامذته وأتباعه بالمدينة المنورة فى الفقه الإسلامى على حسب السنة المحمدية ، وقام مالك بجمع الأحاديث النبوية الشريفة وتحقيقها وترتيبها ترتيباً خاصاً فى كتابه المعروف « الموطأ » [أى الطريق الممهد] ، هكذا كان عنوان هذا المؤلف الشهير الذى أصبح بعد ذلك أساساً لمذهب دينى جديد هو « المذهب المالكى » الذى انتشر على وجه الخصوص فى المغرب الإسلامى ، بينما المذاهب الإسلامية الثلاثة الأخرى : الشافعى والحنفى ، والحنبلى ، والتى لا تختلف كثيراً عن المذهب المالكى

فيما عدا بعض التفاصيل الدقيقة وطرق التطبيق بقيت منتشرة ومعمولا بها فى بقية أنحاء العالم الإسلامى آنذاك . وفى السنوات التى تلت موت الإمام مالك بن أنس بقى فى المدينة جماعة من الأندلسيين من أتباعه لمتابعة دراسات هذا العالم الفقيه ، ومنهم زياد بن عبد الرحمن شبطون ، ويحيى ابن مضر ، وعيسى بن دينار والفقيه القرطبى المعروف يحيى بن يحيى الليثى ، وكان هؤلاء جميعاً ممن قاموا بدور كبير فى تعريف الإمام مالك بأميرهم الذى كان يحكم بالأندلس حينذاك وذكر صفاته وعظيم خلقه مما كان سبباً فى إعجاب الإمام مالك الشديد به . وقد عادوا جميعاً بعد ذلك إلى الأندلس وكانوا خير دعاة للمذهب المالكى سواء فى العاصمة قرطبة أو فى غيرها من المدن الإسبانية الأخرى متمتعين بحماية وحماس أميرهم الأموى هشام الرضا ثم الحكم الأول من بعده وهكذا أخذ المذهب المالكى فى الانتشار سريعاً بالأندلس حتى أنه لم يمض وقت طويل حتى أعلن مذهباً رسمياً للدولة وأصبحت تصدر عنه الفتاوى والأحكام الفقهية المختلفة . ومن ناحية أخرى فإن دراسة المذهب المالكى والالتزام به خلق فى إسبانيا الإسلامية منذ ذلك الحين وحتى أواخر مرحلة الاسترداد « الريكونكيستا Reconquista » نشاطاً ثقافياً وأدبياً غير عادى قام به الفقهاء المالكيون .

وإذا رجعنا إلى بداية العهد بأسبانيا قبل أن يوجد بها مذهب ديني معين ، فإننا نجد الليث بن سعد هو الإمام والفقيه العظيم وله نفس مكانة الامام مالك فيما بعد (٧) . ونجد أن الأغلبية العظمى من الأندلسيين الذين كانوا يرحلون إلى المشرق للدراسة والسماع يدرسون مبادىء الليث بن سعد جنباً إلى جنب مع مبادىء مالك .

وقبل ذلك ، وعلى وجه التحديد على عهد موسى بن نصير لا شك أن الدراسات الدينية والسماع كان على أيدي جماعة من صحابة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهكذا يمكننا القول أن الدراسات الفقهية وبصفة خاصة الحديث والسنة ، دخلت إلى إسبانيا في وقت مبكر وكانت كلها دراسات أصلية نقلت إليها على أيدي الصحابة ، ثم التابعين وذلك قبل أن يوجد ما عرف فيما بعد باسم « المذهب الديني » وهكذا كان تطور الدراسات الدينية في إسبانيا الاسلامية منذ عهدها المبكر وحتى عهد الأمير هشام الرضا الذي أخذ بالمذهب المالكي وأعلنه مذهباً رسمياً لدولته .

أما مالك الذي سمي المذهب باسمه فقد نشأ بالحجاز واستقر بالمدينة المنورة وأنشأ مذهبه فيها ودرس أحاديث الرسول وأحاط

---

(٧) أنظر مجلة :

Anuario de Historia del Derecho Español, t. VII, p. 22.

بها إحاطة تامة ، وفى الفترة بين سنتى ٧٦٥ ، ٧٧٥ م ألف كتابه المعروف باسم « المُوَطّأ » وفى هذا الكتاب رتب مالك أبواب الفقه المختلفة ، كالزكاة والصلاة والصوم والحج والمعاملات ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه الموضوعات فكتابه ليس جمعاً أو حشداً للأحاديث النبوية كيفما اتفق بل هو يذكر رأيه فى أكثر من موضع حول الموضوع الذى يعالجه أو يذكره بعد أن يقوم بالشرح والإيضاح . وكتاب مالك الذى قامت عليه الدراسات الفقهية فى إسبانيا يضعنا أمام طور من الأطوار الهامة فى تاريخ المذاهب الدينية ، ألا وهو طور استقلال الفقه عن الحديث ، فكما أشرنا هنا لم يكن موطأ مالك حشد للأحاديث النبوية وحسب بل هناك الشروح والتعليقات التى تشغل جزءاً يفوق كثيراً ما تشغله نصوص الأحاديث . ومن هنا أخذ الدارسون من الفقهاء يهتمون كثيراً « بالرأى » وبدأ « الاجتهاد » فى الدراسات الفقهية .

اشتهر مذهب مالك فى العالم الإسلامى وقصده فى المدينة كثير من الناس لأخذ العلم على يديه فذهب إليه طلبة من المغرب والأندلس ومصر والشام فضلا عن الحجاز، وأخذ مذهبه ينتشر فى تلك الجهات ما عدا العراق التى اشتهر فيها مذهب أبو حنيفة ، الذى كان يتلاءم وعقلية أهل العراق .

وحال وفاة الأمير هشام كان الأندلس يعج بالفقهاء والدارسين المالكيين من الشباب المتفتح إلى الحاذق ذوى المطامع من أمثال يحيي ابن يحيي الذى أصبح بحق زعيم المالكيين ومفتى العاصمة الأندلسية قرطبة وكان يتدخل لدى الأمراء لاختيار القضاة وتعيينهم[١].

هذا إلى جانب عيسى بن دينار ، وعبد الملك ابن حبيب وهما أيضاً من زعماء المالكيين بالأندلس ، وعن هؤلاء الثلاثة يقول ابن لبابه: « كان ابن دينار فقيه الأندلس ، وابن حبيب عالمها ، وأما يحيي ابن يحيي فهو عاقلها » . ويضيف قوله إنه لم يكن بين تلامذة مالك من يفوق يحيي بن يحيي فى مهارته وذكائه وجلده . ويحكى قصة مؤداها أن الإمام مالك كان يلقى درسه كالمعتاد ذات يوم حين مر بالشارع فيل ، فترك طلبته الدرس وأسرعوا ليروا الفيل عن كثب ، وأما يحيي فقد كان الوحيد الذى بقى بمجلسه لم ينهض مما استغرب له مالك ، فسأل تلميذه ملاطفاً : لماذا لم تذهب معهم ؟ إذ لا يوجد فى إسبانيا أفيال . فرد عليه يحيي قائلا : ياسيدى ، لقد تركت بلدى وتحملت العناء لكى أحضر دروسك وأسمع منك ،

---

(١) أنظر : ابن الفرضى ص ٤٤ — ٤٦ رقم ١٥٥٤ ، الضبى ص ٤٩٥ — ٤٩٨ رقم ١٤٩٧ ، المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١٦٣ — ١٦٥ ، وانظر أيضاً : دوزى جـ ١ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

لا لكي أرى أفيالا . فسر مالك بهذه الإجابة كثيراً وسماه منذ ذلك الحين « عاقل الأندلس » .

وقد تمتع يحيى بن يحيى بسمعة وشهرة عظيمتين فى قرطبة ، وكان يعتبر فقيه وعالم البلد الأول . ومنذ عهده بدأ الفقهاء المالكيون الإسبان فى الظهور والتفوق ، ولم يصبحوا مجرد علماء فى الدين قد سمعوا من هذا أو درسوا على يد ذاك ، وإنما كان هناك ما هو أقوى من ذلك كثيراً ، إذ كان هناك رابطة وشعوراً واحداً يجمعهم ، وهكذا بدأ ظهور ونفوذ المذهب المالكى فى إسبانيا . صحيح أن ذلك بدأ فى العاصمة قرطبة حيث كانت تتجمع عناصر الحياة الثقافية المختلفة ، ولكن ذلك لم يقتصر على العاصمة وحدها إذ بعد فترة وجيزة أخذ يمتد ويزحف سريعاً لينتشر فى بقية مدن وأنحاء الأندلس كلها وبدأ ظهور ونبوغ الفقهاء المالكيون بهذه المدن وتلك الأنحاء .

وإلى جانب الفقهاء الأعلام ممن ذكرناهم الآن ، لابد لنا قبل أن نختتم هذا الحديث من ذكر بعض الفقهاء الأندلسيين الآخرين الذين كان لهم ذكر وصيت كفقهاء مالكيين ، ونقتصر هنا على ذكر بعضهم ممن استحقوا شرف ذكرهم فى « الرسالة » لابن حزم ، ونبدأ بذكر أتباع مالك المباشرين ممن سمعوا منه شخصياً أو سمعوا

من تلامذته وكان لهم فضل نقل مذهبه إلى الأندلس : وأولهم عيسى بن دينار الذى وقف فى وجه الأمير الحكم الأول بن هشام فى الثورة التى قامت ضد هذا الأمير بقرطبة ، وحينما أخذ الأمير ينكل بكل من لعب دوراً فى هذه الثورة ، تمكن عيسى من الاختفاء لفترة حتى هدأت الأمور وصدر العفو عنه(٩) . وثانيهم هو عبد الملك بن حبيب الذى توفى عام ٢٣٨ هـ — ٨٥٣ م وتنسب إليه عدة مؤلفات من بينها كتاب فى التاريخ ، وآخر فى الفقه اشتهر به كثيراً واسمه « الواضح » وهو عبارة عن شروح وتعليقات لموطأ مالك . وقد كان عبد الملك تلميذاً لفقيه عصره محمد العتبي (توفى سنة ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م) صاحب كتاب «العتبية» الذى كان ذائع الصيت بشمال أفريقيا(١٠) .

وهناك فقيه آخر قرطبي معاصر لنفس الفترة ، ألا وهو يحيى ابن إبراهيم بن مُزَين ، وقد قام أيضاً بعمل تعليقات على مؤلف مالك ، كما أملى مذكرات لسيرة حياة الشخصيات الواردة فى كتاب مالك .

وبعد نهاية عهد عبد الرحمن الثانى كان المتربع على عرش الفقه

(٩) أنظر : ابن الفرضى جـ ١ ص ٢٧١ رقم ٩٧٣ ، المغرب جـ ٢ ص ٢٤ .
(١٠) أنظر : ليفى بروفنسال جـ ٥ ص ٣٠٧ .

بقرطبة هو المولى محمد بن عمر بن لُبابة (توفى سنة ٣١٤ ﻫ -٩٢٦م) وكانت له مجموعة من « الفتاوى المختارة » قام بجمعها بعد ذلك ابن سهل .

بعد ذلك ، وحتى نهاية عهد الخلافة بأسبانيا ، كان عدد المالكيين يتزايد سواء فى قرطبة أو فى غيرها من مدن الأندلس . وإلى جانب دراساتهم المختلفة على موطأ مالك أو « المدوّنة للقيروانى سَحنون ، أخذوا يهتمون بوضع أساس «الطبقات» ذلك المؤلّف الذى يبرز فيه على وجه الخصوص عبد الله بن أبى دليم ، وأحمد بن عفيف(١١).

(١١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ رقم ٣٥٥ ؛ المراقبة العليا وص ٢٨ — ٣٠ .

(٢)

لماذا فضل الأندلسيون مذهب مالك على مذهب أبي حنيفة ؟

الواقع أن المذاهب الدينية لا تنتشر بقوتها الذاتية فحسب وإنما يرجع انتشارها إلى عدة عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ونفسية .

والعالم الكبير ابن خلدون يرجع انتشار المذهب المالكى فى الأندلس إلى طبيعة أهل تلك البلاد التى كانت تشبه إلى حد كبير طبيعة أهل الحجاز من حيث البداوة والبساطة .

والواقع أننا نلاحظ أن ابن خلدون فى كتاباته قد تحامل على العرب وصور أهل الحجاز تصويراً سيئاً فرماهم بالبداوة والبعد عن الحضارة ، وربما يرجع ذلك إلى أن ابن خلدون قد تصور حالة الحجاز بالصورة التى كانت عليها أيامه هو ، أى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد كان الحجاز فى ذلك الوقت بعيداً عن أى نشاط اجتماعى واقتصادى ، وكانت أهميته قاصرة على النواحى الدينية فقط . غير أن الحجاز فى القرن الثامن الميلادى كان وضعه مختلف بالمرة ، فالحجاز رغم انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق أيام الأمويين إلا أنه استمر مركزاً حضارياً هاماً للدولة الإسلامية :

فمن الناحية الثقافية كان الخلفاء الأمويون أنفسهم يبعثون بأبنائهم من دمشق إلى المدينة ليتلقوا العلم هناك . ومن الناحية

الدينية والفقهية فقد استمر الحجاز هو المركز الممتاز لهذه العلوم لأن أكثر الصحابة والتابعين كانوا من المدينة ، وهم أعرف الناس بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن ناحية الفنون المختلفة نجد أن الآداب والموسيقى والغناء ازدهرت كلها بالحجاز في هذه الفترة ومن يقرأ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني يستطيع أن يكون فكرة صحيحة عن مدى الازدهار الفني الذي بلغته مكة والمدينة في القرن الثامن الميلادي لدرجة أن بعض الحجازيين كانوا يترفعون على السوريين والعراقيين لأنهم كانوا أقل منهم حضارة ومدنية .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن اعتناق الأندلسيين للمذهب المالكي مذهب أهل الحجاز لا يرجع إلى تقارب الشعبين من الجهل والبداوة كما يقول ابن خلدون ، بل يرجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية .

من المعروف أن الجيوش العربية التي قامت بفتح الأندلس كان معظمها من المصريين والشاميين والحجازيين ، وأما العنصر العراقي فلم يكن ممثلا في هذه الجيوش كما هو واضح في الكتب التي تناولت فتوحات الأندلس . وقد كان من الطبيعي بعد ذلك أن يفكر عدد كبير من الأندلسيين ولاسيما الحجازيين في العودة إلى بلادهم لتأدية فريضة الحج أو لزيارة ذويهم ، ولقد ساعد هذا من

غير شك على اتصال الأندلسيين بالمذهب المالكي دون غيره ، ومن المعروف أن الأندلس كانت مستقلة سياسياً عن الدولة العباسية التي كان مذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي ، فليس ببعيد أن يكون انتشار المذهب المالكي في الأندلس راجعاً إلى تحقيق هذه النزعة الاستقلالية ، أو إلى هذا الاستقلال السياسي بين الشرق والغرب .

هذا إلى جانب أن الإمام مالك نفسه كان لا يحب العباسيين ، ويرى أنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين العلويين ، ولذا فقد يكون هذا هو السبب في اعتناق الأندلسيين لهذا المذهب انتقاما ونكاية في العباسيين .

ويروى ابن القوطية وكذلك صاحب « أخبار مجموعة » أن الإمام مالك في أحد مجالسه مع الطلبة الأندلسيين أبدى إعجابه بالأمير هشام ومدحه متمنياً لو أن هذا الأمير زاره في المدينة فلما بلغ هشام ذلك المديح عمل على نشر المذهب المالكي في بلاده .

وهناك مؤرخون آخرون مثل السلاوى في كتابه «الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى» يقولون إن مديح مالك كان لعبد الرحمن الداخل وليس لهشام ، ولكن الرواية على كل حال تدل على الإعجاب المتبادل بين الامام مالك وأهل الأندلس ، وهو ما يؤيده أيضاً العلامة دوزى وغيره ممن أوردوا في مؤلفاتهم الكثير

من الأخبار والحجج على ذلك ، ويكفينا هنا أن نذكر بما سبق أن أوضحناه فى هذا الصدد عن اهتمام الأمير هشام بالدراسات الدينية وعلاقاته المتينة بالفقهاء المالكيين .

ويروى بعض المؤرخين أن عقيدة أهل الأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث حتى قيل أنهم لا يعرفون سوى القرآن والموطأ ، بل إننا نجد فيما بعد أن بعض الأندلسيين يذهبون فى هذا المضمار إلى حدود فى منتهى التقييد ، ونقصد بذلك المذهب الظاهرى وزعيمه الفقيه المؤرخ ابن حزم ، وهؤلاء قالوا بضرورة الأخذ بظواهر نصوص القرآن والحديث والتمسك بألفاظها اللغوية فعقلية أهل الأندلس كانت تلائم هذا النوع من التفكير والانسان دائماً يفضل ما يلائم مزاجه العقلى .

(٣)

مالك بن أنس

صاحب المذاهب المعروف

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان الأصبحي المدني إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأعلام . أصله يمني قحطاني ، ولد بذي المروة ، وهو مكان أشبه بالواحة على بعد ١٩٢ كيلو متراً شمال المدينة المنورة . اختلف في سنة مولده والأشهر أنه ولد سنة ٩٣ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي ، وتوفي بالمدينة سنة ١٧٩ هـ في خلافة الرشيد العباسي (١) .

كانت نشأة مالك في هذه البيئة دافعاً قوياً له لدراسة الفقه الإسلامي ، فقد عني الحجاز في هذا العهد بالدراسات الدينية خاصة الفقهية ، وقد كانت هذه الدراسات هي روح العصر بصفة عامة ليس فقط بالحجاز ، بل في كل أنحاء العالم الإسلامي .

فاذا ألقينا نظرة سريعة على هذا العالم أدركنا مدى ازدهار تلك الدراسات في ذلك الوقت :

فهذه مصر إذ ذاك قد نزلها « ابن هرمز الأعرج » (٢) وبها توفي سنة ١١٧ هـ وبعث الخليفة إليها « نافعاً » مولى ابن عمر ليعلم الناس الحديث ، وفيها مات سنة ١١٧ هـ أيضاً ، كما نزلها

(١) أنظر : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٨٤ ، المختصر ج ٢ ص ١٤ ، شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٨٩ .

(٢) أنظر كتاب : مالك بن أنس — ترجمة محررة ج ١ ص ١٤١ .

أبو يونس مولى أبي هريرة حتى مات سنة ١٢٣ هـ ، وعرف فيها محدثون كعلى بن رباح أحد علماء زمانه ، وموسى بن وردان المصرى، ويونس بن يزيد الأيلي أوثق أصحاب الزهرى ، وعمرو بن الحارث الفقيه الحافظ. وكان أحفظ الناس في زمانه ، ومحدثها الشهير أبي عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصرى ، وكثير غير هؤلاء .

وكان بها الفقهاء والمفتون كبكر بن سوادة الآخذ عن ابن عمر (توفى سنة ١٢٨ هـ) ، وأبي رجاء يزيد بن حبيب فقيه مصر وشيخها ومفتيها (توفى ١٢٨ هـ) ، والليث بن سعد الفقيه الجليل الذي يعنيه مالك حين يقول : وأخبرنى من أرضى من أهل العلم. والذي آثره الشافعي عند الموازنة بينهما .

وتدع مصر إلى الشام فتلقاك الشام فى ذلك العهد بجلة من الرجال كأبي عبد الله مكحول (توفى ١١٢ هـ) ، ويحيى بن يحيى الغسانى (توفى ١٣٣ هـ) ، والأوزاعى (توفى ١٥٧ هـ) ، وأبي محمد بن سعيد بن عبد العزيز التنوخى الذى هو لأهل الشام كمالك لأهل المدينة (توفى ١٦٧ هـ) .

وإن رنوت إلى العراق جاءتك العراق بوجوه من المحدثين كالشعبي (توفى ١٠٤ هـ) والعزومى (توفى ١٤٥ هـ) ، والأعمش (توفى ١٤٨ هـ) وابن عون (توفى ١٥١ هـ) ، وغيرهم كثيرون يؤيدهم

أعيان من الفقهاء كالقضاة المشهورين : إياس بن معاوية (توفى ١٢٢ هـ) وابن شبرمة القاضى الشاعر (توفى ١٤٤ هـ) ، وابن أبى ليلى الذى قيل فيه إنه كان أفقه أهل الدنيا (توفى ١٤٨ هـ) ، والإمام الكبير أبى حنيفة (توفى ١٥٠ هـ) وكرام أصحابه ، وسفيان الثورى الإمام صاحب المذهب (توفى ١٦١ هـ) ، والحمادين : حماد بن سلمة (توفى ١٦٧ هـ) ، وحماد بن زيد (توفى ١٧٩ هـ) الذى كان يقاسم مالكا الإمامة فى عصره .

وأنت واجد مثل هؤلاء فى اليمن ، وفى أقطار المشرق وأنحاء المغرب فتقدر أن البيئة الإسلامية كان يسودها فى القرن الثانى للهجرة نشاط جم فى الدراسات الدينية كما كانت تتلقى تأثيراً جديداً من النقل والترجمة والتمثل للعلوم العقلية والفلسفية .

أما الحجاز فإنها مهبط الوحى ودار الدعوة ، رددت جوانبها أصداء النداء السماوى وعلى معالمها تفهم تعاليمه وبحوادث تاريخها تفسر نصوصه . ورجالها هم دعاة الرسالة وبناة الدولة ومطبقو الشريعة وحملتها إلى الناس فلا غرو أن خلف من بعدهم خلف ورثوا هذا العلم الدينى سواء فى ذلك أبناء هؤلاء الرجال ومواليهم الذين اجتلبوهم فى فتوحهم وآخوا بينهم وبينهم ذلك الإخاء الإسلامى ، فكانت للعلم الدينى من هذه البيئة سوق نافقة حافلة بالعرب والموالى من مختلف الأجناس ، فترى وجوه العلماء - بل

القراء الذين يؤخذ عنهم القرآن وهو الأصل الأكبر - منهم الفارسى كابن كثير قارىء مكة (توفى ١٢٠ هـ) ومنهم الرومى كإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين (توفى ١٧٠ هـ) قارىء مكة أيضاً . ومنهم من تلاقت فيه الأجناس كسلمة بن دينار عالم المدينة وزاهدها وواعظها ، وهو فارسى وأمه رومية . وكذلك تجد القضاة والمفتين وأوعية العلم ونقلة الدين ألواناً وأجناساً . ولا يعنينا من هذا كله إلا دلالته على العناية المتوفرة بالدراسة الدينية ولا سيما الفقهية فى الحجاز فى هذا العهد ، وما فى ذلك من إعداد صالح لمالك ومدرسته بالحجاز .

فى هذه البيئة نشأ مالك فأخذ العلم من صغره بالمدينة عن علمائها ثم تجاوزهم إلى غيرهم من علماء المدن الأخرى فأخذ عن كثيرين حتى عدوا من روى عنهم تسعمائة رجل كان لهم جميعاً تأثيرهم فى مالك . وأبرز هؤلاء الأشياخ :

ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن فروخ المدينى ، ويعتبر أول أساتذة مالك الذين أخذ عنهم فى صغره .

ابن هرمز : أبو بكر عبد الله بن يزيد ، ويروى أن مالكا كان يأتيه فى الصباح المبكر فلا يخرج من عنده إلا فى الليل .

ابن شهاب الزهرى : أبو بكر محمد بن مسلم ، وأصله من قريش وكان مالك يحرص على مجالسته

نافع بن سرجس : أبو عبد الله الديلمي ، مولى عبد الله بن عمر الذي بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم المصريين السنن .

جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو أحد الأئمة الإثنا عشر .

محمد بن المنكدر بن الهدير التيمي القرشي .

أبي عامر عروة بن أذينة ، الفقيه المحدث ويعد أيضاً من شعراء أهل المدينة .

عمارة بن عبد الله بن صياد المدني . وإسحق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري .

وهؤلاء كلهم مدنيون ، وروى كذلك عن :

أبي الزبير المكي محمد بن تدرس ، وأيوب بن أبي تميمة السختياني من علماء البصرة ، وعطاء بن عبد الله من أهل خراسان ، وغيرهم .

وهكذا تضلع مالك في علوم الفقه ، ويروى عنه قوله : ما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك . وكذلك قوله : قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني (٣) .

(٣) أنظر : شذرات الذهب جـ١ ص ٢٨٩ ، وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٨٤ تحت رقم ٥٢٢ .

وكان مالك عظيم المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبالغاً في تعظيم حديثه ، وفي هذا يقول ابن خلكان : « وكان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك فقال :

أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٤) .

وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنه ، ويقول : لا أركب في بلد فيها جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم مدفون(٥) .

وكان مالك يشهد الصلوات الخمس والجمعة ويصلي على الجنائز ويعود المرضى ويقضي الحقوق ، وأكثر جلوسه في المسجد ، ومع كل ذلك ، ومع فضائله هذه إلا أنه سعي به إلى جعفر بن سليمان ابن علي بن عبدالله بن عباس ، وهو عم أبي جعفر المنصور ، وقيل له إنه لا يرى خلافتكم فضربه سبعين سوطاً ، ومدت يده حتى انخلعت فلم يزل بعد ذلك في رفعته كأنما كان السياط حلياً حلي به(٦) . ولما ورد المنصور المدينة أراد أن يقيده منه فقال : والله ما ارتفع سوط منها عن بدني إلا وقد جعلته في حل لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل ضرب لفتوى لم توافق أغراضهم .

---

(٤) وفيات الأعيان : المصدر نفسه .

(٥) نفس المصدرين السابقين .

(٦) نفس المصدرين السابقين .

وقيل إنه حمل إلى بغداد وقال له واليها : ما تقول فى نكاح المتعة ، فقال : هو حرام . فقيل له : ما تقول فى قول عبد الله بن عباس فيها . فقال : كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله تعالى . وأصر على القول بتحريمها فطيف به على ثور مشوهاً ، فكان يرفع القذر عن وجهه ويقول : يا أهل بغداد من لم يعرفنى فليعرفنى ، أنا مالك ابن أنس فعل بى ما ترون لأقول بجواز نكاح المتعة ولا أقول به . ثم بعد ذلك لم يزده الله تعالى إلا رفعة وكان ذلك كالتميمة له لجزاه الله تعالى عن نفسه والأمة خيراً .

وقد كان للإمام مالك مكانته العلمية التى دعت الحكام إلى تبجيله واحترامه واستشارته فى كل ما يعن لهم من أمور دينهم أو دنياهم ، والأدلة على ذلك كثيرة .

فهذا هو الرشيد يأمر واليه على المدينة سنة ١٧٣هـ ألا يقطع أمراً دون مالك .

وهذا هو الخليفة المنصور يقول لمالك : إذا رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك فاكتب إلى بذلك أنزل بهم ما يستحقون(٧) .

وعن علمه ومكانته يقول ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب :

---

(٧) أنظر : مالك بن أنس — ترجمة محروة ﺟ ٢ ص ٣١٧ .

« قال الشافعي : قال لي محمد بن الحسن : أي أعلم ، صاحبنا أو صاحبكم ، يعني أبا حنيفة ومالكا رحمهما الله تعالى ، قلت : على الإنصاف . قال : نعم . قلت : أنشدك الله من أعلم بالقرآن ؟ قال : صاحبكم ، قلت : فمن أعلم بالسنة ؟ قال : صاحبكم . قلت : فمن أعلم بأقاويل الصحابة ؟ قال : صاحبكم قلت : فما بقي إلا القياس وهو لا يكون إلا على هذه الأشياء ».

« وحدث عتيق بن يعقوب الزبيدي قال : قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس ، فوجه إليه البرمكي فقال أقرئه السلام وقل له يحمل إليّ الكتاب ويقرؤه علي . فأتاه البرمكي ، فقال [يعني مالكا] أقرئه السلام وقل له إن العلم يؤتى ولا يأتي . فأتاه البرمكي فأخبره ، وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك في أمر فخالفك . اعزم عليه ، فبينما هو كذلك إذ دخل مالك فسلم وجلس ، فقال له الرشيد : يا ابن أبي عامر أبعث إليك وتخالفني فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري عن خارجة بن زيد عن أبيه قال : كنت أكتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يستوي القاعدون من المؤمنين» وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إني رجل ضرير وقد أنزل الله عليك في فضل الجهاد ماقد علمت .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا أدرى » وقلبي رطب ما جف ، ثم وقع فخذ النبي صلى الله عليه وسلم على فخذى ثم أغمى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا زيد أكتب « غير أولى الضرر » . و يا أمير المؤمنين حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة عليهم السلام في مسيرة خمسين ألف عام ، ألا ينبغى لى أن أعزه وأجله . وأن الله تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع بعملك ، فلا تكن أنت أول من يضيع عز العلم فيضيع الله عزك . فقام الرشيد يمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه الموطأ ، فأجلسه معه على المنصة ، فلما أراد أن يقرأه على مالك قال له تقرؤه على ، قال ما قرأته على أحد منذ زمان . قال فيخرج الناس عنى حتى أقرأه أنا عليك ، فقال : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله تعالى به الخاصة . فأمر معن بن عيسى القزاز ليقرأه عليه فلما بدأ ليقرأه قال مالك لهارون : يا أمير المؤمنين أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم . فنزل هارون عن المنصة وجلس بين يديه وسمعه » .

« وقال أبو عبد الله الحيدى الأندلسي : أنشدنى والدى أبو طاهر إبراهيم :

إذا قيل من نجم الحديث وأهله أشار أولو الألباب يعنون مالكا
إليه تناهى علم دين محمد فوطأ فيه للرواة المسالكا
ونظم بالتصنيف أشتات نثره وأوضح ما قد كان لولاه حالكا
وأحيا دروس العلم شرقاً ومغرباً تقدم فى تلك المسالك سالكا
وقد جاء فى الآثار من ذاك شاهد على أنه فى العلم خص بذالكا
فمن كان ذا طعن على علم مالك ولم يقتبس من نوره كان هالكا

يشير بقوله : وقد جاء فى الآثار ... إلخ إلى حديث « تضرب الإبل أكبادها إلى عالم المدينة لا ترى أعلم منه » .

وقال الشافعى رضى الله عنه : « إذا ذكر العلماء فمالك النجم » (٨).

ومع أن الفتيا حق لمن عرف له علم فإن الحكومة قد تقصرها على شخص بعينه أو أكثر وتذيع ذلك بالطريقة المتبعة للاعلان. إذ ذاك وهى المناداة ، وقد نودى أكثر من مرة ألا يفتى الناس إلا مالكاً . وهذا ابن خلكان يقول نقلا عن ابن وهب : « سمعت منادياً ينادى بالمدينة : ألا يفتى الناس إلا مالك بن أنس وابن أبى ذئب » (٩).

---

(٨) انظر : شذرات الذهب ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٢ ، وانظر أيضاً : وفيات الأعيان ص ٢٨٤ وما يليها ، المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٤ .

(٩) وفيات الأعيان ، نفس المصدر السابق .

وقيل إنه بكى فى مرض موته ، وقال : والله لوددت أنى ضربت فى كل مسألة أفتيت بها وليتنى لم أفت بالرأى . وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدى فى كتاب « جذوة المقتبس » قال : حدث القعنبي قال : دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكى ، فقلت : ياأباعبد الله ، ما الذى يبكيك ؟ فقال لى : يا ابن قعنب ، ومالى لا أبكى ؟ ومن أحق بالبكاء منى ؟ والله لوددت أنى ضربت بكل مسألة أفتيت فيها برأىبسوط سوط ، وقد كانت لى السعة فيما سبقت إليه وليتنى لم أفت بالرأى .

وكانت وفاة الإمام مالك بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ودفن بالبقيع ، وكان قد تخطى الثمانين من عمره . ولما مات قال عنه ابن عيينة : ما ترك على وجه الأرض مثله .

ومن وصف المراجع له نعرف أنه كان طويل القامة عظيم الهامة شديد البياض يميل إلى الشقرة ، أزرق العينين أصلع الرأس طويل اللحية ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة ولا يغير شيبه ، محباً للثياب البيض ويلبس الثياب العدنية الجياد ، وإذا اعتم جعلها تحت ذقنه ويسدل طرفها على كتفيه ، مهاباً جليلا فى حركاته وسكناته .

هذا هو منشىء المذهب المالكى، الإمام الجليل والفقيه العالم مالك بن أنس، عرفنا به وبسيرته فى هاتيك الصفحات القصار التى لا تغنى عن دراسة شاملة لحياته، علنا نكون قد ألقينا بعض الضوء على هذه الحياة الحافلة.

خاتمـــــة

نهاية العهد

فى شهر صفر سنة ١٨٠ هـ - أبريل ٧٩٦م توفى الأمير هشام الرضا إبن عبد الرحمن الداخل ولم يكمل الأربعين من عمره[1] ؛ بعد أن حكم سبع سنوات وعدة أشهر كما تجمع على ذلك المراجع المختلفة ، ودفن فى القصر بقرطبة وصلى عليه ابنه الحكم .

ويحكى أن هشاماً لما ولى الإمارة بعث فى الضبى المنجم[2] وكان يقيم بالجزيرة الخضراء فى أقصى جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية ، فلما حضر ومثل بين يديه قال له : لست أشك أنك قد عنيت بأمرى إذ بلغك ، فناشدتك الله ألا أخبرتنى بما ظهر لك ؟ فقال له الضبى : ناشدتك الله إلا أعفيتنى من هذا . فأعفاه ، فلما كان بعد

---

(١) يذكر ابن العماد الحنبلى أن سنه كانت إذ ذاك سبعاً وثلاثين سنة — شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٤ . بينما يذكر ابن عذارى أن سنه كانت أربعين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام ، البيان المغرب ص ٦١ . والأشهر أن سنه كانت وقت أن توفى تسعة وثلاثين سنة وأربعة أشهر — أنظر ، الكامل ج ٥ ص ١٠١ نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٨ ، المختصر ج ٢ ص ١٤ ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٨ .

(٢) أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤١ ، ٤٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٤ .

ذكر ليفى برفنسال خطأ أن المنجم هو «العباس بن فرناس» ، تاريخ أسبانيا الإسلامية ص ١٤ .

هذا وقد وردت هذه الحكاية فى معظم المراجع وبصورة عديدة ، ولكن لب الموضوع واحد فى جميعها .

أيام سمع هشام بالأمر من أحد زواره فأمر بإحضار المنجم مرة أخرى وقال له : إن الذى أسألك لست والله أصدق به على الحقيقة ، ولكن أريد أن أسمعه ، ولو أوردت على ما يغمني لأعافينك ولا كسونك وأكافؤك كما كنت أفعل لو أوردت على ما يسرنى فقال له الضبى : ما بين الستة إلى السبعة . فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال : ياضبى ، والله لو أنها فى سجدة الله لهانت . وكساه وحباه وصرفه إلى بلده وطرح الدنيا ومال إلى الآخرة رحمه الله .

ويقال إن هذا هو سبب زهده وتدينه وصلاحه وانصرافه عن الأمور الدنيوية . وقد أورد معظم المؤرخون هذه القصة بصور مختلفة وبالغوا فى ذكر تفاصيلها وأهميتها بالنسبة لتصرفات الأمير هشام وبالنسبة لمجريات الأمور عامة ، والواقع أن هذا كله من قبيل التهويل ، إذ من الثابت أنه لم يكن لهذا كله أدنى أثر على الأمير هشام ولا على مجريات الأمور فى ذلك العهد ، ولكنها أتت جرياً على عادة الكتاب القدامى فى اهتمامهم بسرد الأساطير وطريف القصص خلال ما يدونون ، وعن الكتاب العرب قام المستشرقون وغيرهم من الكتاب الأجانب بنقل هذه القصص حسب أساليبهم وقام البعض منهم بالتعليق عليها ، واكتفى البعض

الآخر بذكر أحداثها دون ما تعليق . وهذا هو المؤرخ كوندي[١]
يحكي لنا قصة هذه النبوءة بطريقة أخرى إذ يقول إنه في عام
١٧٨هـ - ٧٩٤م كان الأمير هشام في قرطبة يمضي فترة راحة
واستجمام بأحد قصوره وبساتينه حيث كان يتسلى بزراعة ورعاية
بعض أنواع الزهور والزروع ، وكان برفقته منجم مشهور من
بلاطه فقال له : ياسيدي ، إعمل في هذه الأيام القصار لأيامك
الآخرة . فتعجب الأمير لمقالة رفيقه وسأله عما استوجب قوله
هذا ، فتأسف المنجم طالباً من الأمير ألا يسائله في ذلك فقد قال
ما قال دون تفكير . ولكن الأمير ألح عليه مؤكداً أنه لن يغتم
بما سيسمع ولكنه يود سماعه . فقال المنجم إن ما كتب في الغيب
يقول إن الأمير هشام لا بد سيموت قبل عامين . ولم يتأثر الأمير
بما سمع ومضى فيما هو بشأنه حتى حان وقت راحته المعتاد ، وفي
المساء استمع الأمير للغناء ، وأخذ يلعب الشطرنج كعادته ،
وأمر بأن يمنح المنجم حلة جديدة . وكان يسمع مرات عديدة وهو
يردد : « ثقتي في الله ، وبه أعتصم » .

وعلى أي حال فبالرغم من أن الأمير هشام كان عاقلا حكيما
يثق في ربه ولا يلتفت كثيراً لأقاويل العرافين ، ويعلم تماماً أن
كل شيء في هذا العالم يسير حسب مشيئة الله وحسب إرادته ورحمته

(١) انظر : كوندي ص ١١٤ .

الواسعة ، إلا أنه رأى أن الوقت قد حان لاختيار خليفته فى الحكم وهكذا أرسل هشام الكتب إلى الولاة والوزراء والحكام وكتاب الدولة ومستشاريها لجمعهم بحضور الحاجب وقاضى القضاة وأخذ البيعة لابنه وولى عهده الأمير الحكم وأقسم الحاضرون له يمين الولاء والطاعة ، وتم ذلك فى عام ١٧٩ هـ — ٧٩٥ م أى قبل وفاة هشام بعام واحد .

وكان عمر الأمير الحكم فى ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة وكان ذكياً عاقلا شجاعا .

والواقع أن هشاما كان يعد ابنه الحكم هذا ، وهو ثانى أبنائه إذ الأكبر هو عبد الملك ، لكى يتولى الأمر من بعده فرأيناه يدربه على الحرب والقتال فيعهد إليه بقيادة الجيش أثناء حربه مع أخويه سليمان وعبد الله ، ويدربه على الحكم بتوليته طليطلة بعد أن تسلمها من أخويه الثائرين عليه كما رأينا من قبل . وكان لا يفتأ يقدم له النصح ويزوده من علمه وحكمته ، كما رأينا فى نصائحه له وهو على فراش الموت والتى أوردناها فى الجزء الثانى من الفصل الثالث فى حديثنا عن حكمة الأمير هشام وعلمه وأدبه .

وهكذا تولى الحكم إمارة الأندلس بعد وفاة والده الذى ترك

له ملكا قوياً ممهداً ، ليقوم بدوره فى السير قدماً بالسياسة الأموية فى الأندلس .

وبموت الأمير هشام الرضا تطوى صفحة جليلة من صفحات التاريخ العربى الإسلامى فى أقاصى الغرب من أوروبا ، ومعها يذهب إلى عالم الخلود ، علم من أعلام العرب الأمجاد أسهم فى حمل مشعل النور والحضارة متقدما به فى أرض شبه الجزيرة الأيبيرية ، حاملا لواءه لينشره على أوروبا خاصة وعلى العالم أجمع عامة ، ولترتفع راية العلم والمعرفة عربية عزيزة ممجدة ؟

تم بحمد الله تعالى وعونه

بالإسكندرية فى شهر رجب ١٣٨٨ هـ — سبتمبر ١٩٦٨م

مصادر البحث

(١)

العربية

ابن الأبار :

ـ الحلة السيراء ، المخطوط رقم ١٢ بمكتبة مدريد الأهلية تحت عنوان :

"La Capa recamada de oro"

وأيضاً مقتطفات نشرها دوزى تحت عنوان :

"Notices sur quelques manuscrits arabes, Leyden, 1847-1851".

ومقتطفات أخرى نشرها موللر فى جزءين تحت عنوان :

"Geschichte der Westlichen araber, T. I, II".

ـ كتاب التكملة لكتاب الصلة ، طبعة كوديرا فى جزءين ، مدريد ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ م .

ابن الأثير :

ـ الكامل فى التاريخ ، طبعة بإشراف عبد الوهاب النجار فى ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .

ابن الخطيب (لسان الدين) :

ـ كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، طبعة ليفى بروفنسال بيروت ١٩٥٦ م .

ـ الإحاطة فى أخبار غرناطة مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ .

ابن العماد الحنبلى :

ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .

ابن الفرضى :

ـ تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا فى جزءين ، مدريد ١٨٩٠ ، ١٨٩١ م .

ابن القوطية :

ـ تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة دى جايانجوس ، سافدرا ، كوديرا ، مدريد ١٨٦٨ م . والترجمة الإسبانية لريبيرا ، مدريد ١٩٢٦ م .

ابن بسام :

ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، طبعة جامعة القاهرة — القسم الأول ، الجزء الأول ١٩٣٩ ، الجزء الثانى ١٩٤٢ ، القسم الرابع ـ الجزء الأول ١٩٤٥ ، القسم الثانى ـ مخطوط بغداد .

ابن بشكوال :

ـ كتاب الصلة ، طبعة كوديرا فى جزءين ، مدريد ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

ـ كتاب العبر ، طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٨٤ هـ .

ـ المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

ابن خلكان :

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد فى ٦ أجزاء القاهرة ١٩٤٨ م .

ابن سعيد :

ـ المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، جزءان ـ القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ م .

ابن شاكر الكتبى :

ـ فوات الوفيات ، فى جزءين ـ طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ .

ابن عبد الحكم :

ـ فتوح مصر والمغرب ، ليدن ١٩٢٠ م .

ابن عذارى المراكشى :

ـ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، الجزءين ١،٢ نشر دوزى ، ليدن ١٨٤٨ ، ١٨٥١ م ، والجزء الثالث نشر ليفى برفنسال ، باريس ١٩٣٠ م .

ابن غالب :

ـ فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، قطعة نشرها لطفى عبد البديع تحت عنوان « نص أندلسى جديد » القاهرة ١٩٥٦م .

ابن قتيبة :

ـ الإمامة والسياسة ، طبعة السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى فى جزءين ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل) :

ـ المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥ هـ

أخبار مجموعة :

ـ النسخة العربية مع الترجمة الإسبانية للافوينتى ، مدريد ١٨٦٧ م .

البلاذرى (أبو الحسن) :

- فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، القاهرة ١٩٣٢ م .

الخشنى :

- تاريخ قضاة قرطبة ، النسخة العربية مع الترجمة الإسبانية لريبيرا - مدريد ١٩١٤ م ، وأيضاً النسخة العربية بتحقيق السيد عزت العطار الحسينى تحت عنوان « قضاة قرطبة وعلماء إفريقية » - القاهرة ١٣٧٢ هـ .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :

- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، طبعة محمد أمين الخانجى ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

الضبى :

- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، بتحقيق كوديرا ، ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ م .

المسعودى :

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٨ م .

المقّرى (أحمد بن محمد التلمسانى) :

ـ نفح الطيب بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ م .

الناصرى (أحمد بن خالد) :

ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، طبعة الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن):

ـ تاريخ قضاة الأندلس ، أو « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » بتحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨م.

النويرى :

ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب . الجزء الخاص بتاريخ إسبانيا والمنشور بمجلة مركز الدراسات التاريخية بغرناطة ١٩١٥ ، ١٩١٦ م .

"Revista del céntro de Estudios Historicos de Granada Y su reino".

أمين الخولى :

ـ مالك بن أنس ـ ترجمة محررة ، فى ٣ أجزاء ، أيضاً :

مالك « تجارب حياة » العدد ١١ من سلسلة أعلام العرب ـ القاهرة ١٩٦٢ م .

حسين مؤنس (الدكتور) :

ـ شيوخ العصر فى الأندلس ، المكتبة الثقافية تحت رقم ١٤٦ ـ القاهرة أول ديسمبر ١٩٦٥ م .

عبد الواحد المراكشى :

ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، محمد العربى العلمى ـ القاهرة ١٩٤٩ م .

محمد عبد الله عنان :

ـ دولة الإسلام فى الأندلس ، القاهرة ١٩٤٣ م .

الأجنبية

ALTAMIRA Y CREVEA, Rafael : Historia de España y la Civilización Española, 2a Ed., Barcelona, 1909.

AMEER ALI : A Short History of the Saracens.

BLEYE, Pedro Aguado : Manual de Historia de España, t, I Madrid, 1947.

CONDE, José Antonio: Historia de la Dominación de los Arabes en España, Sacada de varios manuscritos y memorias arábigas, Paris, 1840.

DE GAYANGOS, Pascual: History of Mohamedan Dynasty in Spain, London, 1940-1943.

DE LAS CAGIGAS, Isidro : Los Mozarabes, t I, II, Madrid, 1947 1948.

DICCIONARIO DE HISTORIA DE ESPANA, 2 tomos, Madrid, 1952.

DOZY, Reinhart :

— Historia de los Musulmanes de España ; Trad. y notas por Federico de Castro t. I & II, Buenos Aires, 1946.

— Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen-Age, 3ème éd., Paris, Leyden, 1881.

PALENCIA, Gonzalez: Historia de la literatura arabigo-española, Barcelona, 1928.

PEREZ DE URBEL, Fray Justo : Historia del condado de Castilla, 3 tomos. Madrid, 1945.

PONS BOIGUES, Francisco : Historiadores y Geógrafos arábigos españoles, Madrid, 1899.

PROVENÇAL. Lévi : Historia de la España musulmana : Dirigida por Ramón Menéndez Pidal, Trad. e Introducción por Emilio Garcia Gómez, t. IV & V, Madrid, 1957.

SIMONET, Francisco Javier : Historia de los Mozárabes de España, Madrid, 1897-1903.

TERES SADABA, Elias : El Poeta Abu-l-Majsi y Hassana la Tamimiyya, Revista de Al-Andalus, t. I, Madrid, 1961.

REVISTA : Anuario de Historia del derecho Español, t. VII, Madrid.

فهرس

صفحة

تصويب الاخطاء

رجاء للقارىء الكريم بتصحيح الأخطاء المطبعية التالية قبل قراءة الكتاب حتى تتم الفائدة المرجوة ، والله الموفق :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠	٦	Murica	Múrcia
٣٢	١٢	تنق	تنفى
٤١	٢	عصبية	عصبية
٥٠	١٥	حاربوه	خاربوه
٥٨	١	اتبعنا	تتبعنا
٦٢	٦	Iurjazona	Turiazona
٧٩	٤	جيوش	جيش
٨١	١٠	أشتوريش مهاجمته	أشتوريش من مهاجمته
٨٥	١٦	يعمل	يعمل
٩٦	١	ربع	أربع
٩٦	٧	إذا	إذ
١٠٣	١	شاعرته	شاعريته
١٠٥	١٣	فليذكر	فيذكر
١٠٨	٢	يرد	ترد
١٠٩	١	سنابل	سنابك
١١١	٥	بجنون	بجنون
١١١	٨	ودأبه	وأدبه
١١١	٩	حكمه	حكمته
١٤٨	٢	المتفتح إلى الحاذق ذوى	المتفتح الحاذق ذى
١٦٢	١٧	العزومى	العزرمى
١٦٩	١٠	قاله	قال

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٧٧/١٩٧٣